الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في مادة

تاريخ الأدب العربي القديم2

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر – تخصص: أدب عربي قديم

((السداسي الثاني))

إعداد الدكتور: بن ساري مسعود

الموسم الجامعي 2019-2020

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالمادة

التعريف بالمادة

اسم السداسي: الثاني

اسم الوحدة: الوحدة التعليمية الأساسية2

المادة2: تاريخ الأدب العربي القديم2

الرصيد: 04

المعامل: 02

أهداف التعليم: أن يتعرف الطالب على تاريخ أدبه العربي وتطوره

المعارف المسبقة المطلوبة: سبق للطالب أن تعرف على هذه المادة في النص الأدبي القديم

طريقة التقييم: يجرى تقييم الطالب في المحاضرات عن طريق امتحان في نهاية السداسي؛ ويكون تقييمه في الأعمال الموجهة تقييما متواصلا طوال السداسي.

المصادر والمراجع:

- تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان
- سلسلة تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف
- تاريخ الأدب العربي عمر فروخ
- تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري
- موسوعة تاريخ الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، كامبريدج.

مفردات المادة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف
معهد الآداب واللغات — قسم اللغة والأدب العربي

بطاقة المادة السنة الأولى ماستر أدب عربي قديم

السداسي الثاني: 2019-2020

بطاقة مادة: تاريخ الأدب العربي القديم (2)

الميدان: لغة وأدب عربي/ **وحدة التعليم:** ..... **نوع المادة:** محاضرة / أعمال موجهة.

الأستاذ المكلف بتدريس المادة: ..... **الرتبة:** ..... **الصفة:** دائم / متعاقد.

رقم الهاتف: ..... **العنوان الإكتروني:** .....

البرنامج المفصل للمادة

	محاضرة	أعمال موجهة
1	الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر الأموي.	مفاهيم أولية، تقسيم الأعمال الموجهة، وهذا بيانها.
2	أغراض الشعر الأموي وتطوره	شعر النقائض خصائصه وأثره في تطور اللغة والأدب
3	شعراء أمويون (عمر بن أبي ربيعة، الأخطل)	عبد شعراء أمويون
4	فنون النثر في العصر الأموي وتطوره	زياد بن أبيه حياته وخطبه
5	ناثرون أمويون (عبد الحميد الكاتب، الحجاج بن يوسف)	المنام الكبير لابن محرز الوهراني. ابن العميد حياته وأدبه
6	الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي.	ظاهرة الشعوبية في العصر العباسي وأثرها على الأدب
7	أغراض الشعر العباسي وتطوره	تجديد أبو نواس في شكل ومضامين القصيدة العربية
8	شعراء عباسيون (الشريف الرضي، الطغرائي)	أبو فراس الحمداني حياته وشعره، أبو العلاء المعري
9	فنون النثر العباسي وتطوره	بين أسلوبي ابن المقفع والجاحظ في الكتابة دراسة مقارنة
10	ناثرون عباسيون (داوود بن علي، الخوارزمي)	فن الرسائل (الديوانية والإخوانية) في العصر العباسي
11	الأدب المملوكي، أغراضه وفنونه وتطوره	شهاب الدين النويري وكتابه نهاية الإرب في فنون الأدب.
12	الأدب في بلاد المغرب العربي تاريخه وخصائصه	الحواضر العلمية في المغرب العربي (القيروان وتلمسان)
13	الأدب الأندلسي، أغراضه وفنونه وتطوره	رثاء المماليك والمدن، الإيقاع في الموشح الأندلسي
14	الأدب العثماني، أغراضه وفنونه وخصائصه	أسباب ضعف الحياة الأدبية في العهد العثماني

نوع التقييم: تقييم مستمر + امتحان نظري في نهاية السداسي

طريقة التقييم المستمر: (موحدة وإلزامية) / تقييم كتابي 20/12. + تقييم شفوي أو بحث فصلي 20/04. + المواظبة والمشاركة 20/04.

إمضاء الأستاذ: **إدارة القسم:**

مقدّمة

مقدمة

هذه أربع عشرة محاضرة عبر الخط في مادة: "تاريخ الأدب العربي القديم2"، أعددتها لطلبة السنة الأولى ماستر، تخصص أدب عربي قديم. للسداسي الثاني، وقد أعددتها وفق مفردات البرنامج المقرر في عرض التكوين، واجتهدت أن أسلك فيها المسلك السهل، والأسلوب المعروف، مع مراعاة الحجم الزماني للحصة، والمستوى العلمي للطلبة، والاستفادة منها عن بعد وانفراد.

وليس يخفى ما لتاريخ الأدب من فوائد على دارسيه وطلابه؛ ذلك أن تاريخ الأدب العربي القديم يعرف الطلاب على الجذور الأولى لنشأة الأدب العربي. وما طرأ عليه من مدٍّ وجزر. فلقد تطور الأدب العربي في العصور الوسطى والعصور الحديثة، وشهدت تأثيرًا من الثقافات الأخرى مثل الفارسية والهندية واليونانية والرومانية. تم تطوير أنواع مختلفة من الأدب العربي مثل الشعر العربي والنثر الأدبي والمسرح والرواية والمقالة الأدبية.

في القرن العشـــرين، ظهرت حركات أدبية جديدة في العالم العربي مثل الحركة النهضـــوية والحركة الحديثة والحركة الســـريالية والحركة الروائية. وتعد الحركة النهضـــوية في مصـــر من أهم الحركات الأدبية في العصر الحديث، حيث سعت إلى تحديث الأدب العربي وإصلاحه وتطويره.

بالإضافة إلى ذلك، يعد الأدب العربي من أهم الأدبيات في العالم، حيث له تأثير كبير على الأدب العالمي وقد ترجمت العديد من الأعمال الأدبية العربية إلى العديد من اللغات.

والله نسأل التوفيق والسداد وعموم الفائدة بها

المحاضرة الأولى

المحاضرة: الأولى (01)

الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر الأموي

تاريخ الدولة الأموية:

(41–132هـ، 661–750م). هي الدولة الأولى بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين عام 41هـ حيث آلت خلافة المسلمين إلى معاوية بن أبي سفيان بن أمية إثر مقتل الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، آخر الخلفاء الراشدين .

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي، ويلتقي نسبه مع نسب الرسول ³ في عبد مناف. وكان أمية في الجاهلية سيدًا من سادات قريش، مساويًا لعمه هاشم بن عبد مناف (جد النبي عليه السلام) في الشرف، ولكن يفوقه في المال والولد .وكان البيت الأموي والبيت الهاشمي يتنافسان على رئاسة قريش بمكة. فلما ظهرت النبوة في بني هاشم؛ تفوقوا على بني أمية في الشرف، وزادوا شرفًا حين تسابقوا للدخول في الإسلام ومناصرة الرسول ³ في الدعوة والجهاد بالنفس والمال، ولم يناصره من بني أمية إلا القليل، وقاوم معظمهم الإسلام بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، الذي لم يدخل الإسلام مع بعض الأمويين إلا عند فتح مكة عام 8هـ، 629م. وحاولوا أن يتلافوا بعد هذا ما فاتهم من شرف السبق بالإسلام ونصرته، فأبلوا في فتوح الشام. وعندما أصبح معاوية واليا على الشام، اجتذب إليه قلوب أهلها بسياسته ودهائه، وقد استمر في هذه السياسة حينما آلت إليه مقاليد الدولة الإسلامية كلها، فجعل من دمشق عاصمة للدولة، ووطد فيها أركان ملكه.

خلفاء بني أمية:

تعاقب على خلافة بني أمية أربعة عشر خليفة، حكم أربعة منهم لنحو سبعين سنة بينما حكم عشرة خلفاء لإحدى وعشرين سنة فقط .والخلفاء هم: معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية (41-60هـ)؛ يزيد بن معاوية (6460 – هـ)؛ معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية (64هـ)؛ مروان بن الحكم بن أبي العاص (6564 – هـ)؛ عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية (65 – 86هـ)؛ الوليد بن عبدالملك (86 – 96هـ).

سليمان بن عبدالملك (96 – 99هـ)؛ عمر بن عبدالعزيز ابن مروان (99 – 101هـ)؛ يزيد الثاني بن عبدالملك (101 – 105هـ)؛ هشام بن عبدالملك (125105 – هـ)؛ الوليد الثاني بن يزيد الثاني (125 – 126هـ)؛ يزيد الثالث بن الوليد بن عبدالملك (126هـ)؛ إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك (126هـ)؛ مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص (127 – 132هـ).

<u>الأمويون والجهاد لنشر الإسلام</u>

.اهتم الأمويون بالجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام فوصلت دولتهم إلى حدود الصين شرقًا وإلى المحيط الأطلسي غربًا وإلى أسوار القسطنطينية شمالاً وإلى بلاد النوبة جنوبًا. واعتزوا بهذا الدور .وشارك كثير من فتيانهم في قيادة فيالق الجهاد. وقد وردت فتوحاتهم في المناطق المختلفة ودورهم في نشر الإسلام من خلال تراجم خلفاء بني أمية.

<u>إسهام الأمويين في الحضارة</u>

اهتم الأمويون باللغة العربية فجعلوها لغة الدواوين والنقد والعلم والدولة عامة، ونمت في عهدهم حركة تعريبية واسعة. وتعدد في عهدهم الكتاب لتعدد مصالح الدولة .فكان هناك كتاب لكل ديوان من الدواوين المختلفة :الرسائل والخراج والجند والشرطة والقضاء، واشتهر من بين هؤلاء الكتاب عبد الحميد الكاتب، في عهد مروان بن محمد. وتمتع الكتاب بمنزلة كبيرة ومركز اجتماعي مرموق.

استحدث الأمويون وظيفة الحاجب بعد موقف الخوارج ومؤامرتهم على حياة علي ومعاوية وعمرو بن العاص، ونجاحهم في قتل علي بن أبي طالب. واختاروا القضاة من ذوي التقوى والورع، واحترموا أحكامهم. وأنشأوا محكمة للمظالم تشبه محكمة الاستئناف في زماننا هذا، تعرض عليها القضايا التي يعجز القضاء العادي عن تنفيذ الحكم فيها، أو يلجأ إليها المتقاضون الذين يعتقدون أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل. وكانت تعقد تحت رئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. وكان عبد الملك بن مروان أول من جلس من الخلفاء الأمويين للنظر في ظلامات الناس.

ويذكر التاريخ لعمر بن عبد العزيز أنه أول من أمر بتدوين الحديث النبوي الشريف تدوينًا رسميًا منظمًا. اهتم الأمويون بالعمارة، وتشهد لهم قصور البادية، كقصر عَمْرة في الأردن وغيره، والجامع الأموي في دمشق، حيث تفنن البناؤون في زخرفتها وطراز بنائها وحمَّاماتها وأسوارها، وغيرها من العناصر الجمالية الراقية.

واعتنوا بالأدب منذ أيام معاوية. فهو أول من أنشأ بيتًا للحكمة (أي مركزًا للبحث ومكتبة). وبلغت الصياغة في الترجمة أوجها في عهدهم وكثر التأليف باللغة العربية. وتصدى الوليد بن يزيد لجمع ديوان العرب: أشعارها وأخبارها وأنسابها.

واهتموا بالتعليم، فكان معاوية أول من أنشأ المدارس الابتدائية (الكتاتيب) .والتفتوا إلى أهمية المراصد الفلكية، فبنوا مرصدًا في دمشق. وأحدثوا البريد بمراحله وفنادقه وخيوله السريعة. ووضعوا نظام الأوقاف والأحباس ودواوين الملك ومراسيمه، ونظام الحِسْبة وأنظمة القضاء وسجلاته.

وبلغوا في التنظيم الحربي شأواً عظيمًا. أوجدوا نظام الكراديس وهي طوائف من الخيول والجيش. وساد أسطولهم على البحر الأبيض المتوسط، وغزت سفنهم القسطنطينية واشتد حصارهم لها حتى كادت تسقط في أيديهم.

وحرصوا على تنمية موارد الدولة المالية. فأصلحوا وسائل الري ونوعوا في المحاصيل الزراعية، واستصلحوا الأراضي البور، وفتحوا القنوات وبنوا السدود. ولعل أول من فعل هذا منهم يزيد بن معاوية، وكان مهندسًا، وهو الذي فتح مجرى نهر يزيد المعروف باسمه في دمشق.

عوامل سقوط الدولة الأموية

العصبية العربية

اتسمت سياسة الأمويين بالاعتماد على العرب وتمييزهم على غيرهم. وأدت هذه السياسة إلى نفور كثير من العناصر غير العربية من الأمويين وانضمامها إلى الأحزاب المعارضة للحكم الأموي، مثل الشيعة والخوارج.

العصبية القبلية:

بالرغم من أن الإسلام سعى إلى القضاء على العصبية القبلية وأحل محلها رابطة الإخاء الإسلامي. فقد أطلَّت القبلية برأسها في عهد الأمويين من جديد ولكن في نطاق ضيق، نتيجة لسياسة بعض الأمويين التي قامت على تفضيل قبائل دون أخرى. فاحتدم الصراع بين القبائل المضرية والقبائل اليمانية، وقامت بسبب هذا بعض الفتن والثورات، خاصة في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ولاية العهد:

سعى معاوية إلى أخذ البيعة لابنه يزيد دفعاً لفتنة محتملة. وقد أصبح هذا النهج سنة اتبعها كل خلفاء الدولة الأموية، وأدى ذلك إلى وقوع نزاع بين أبناء الأسرة الأموية .فمثلاً انتقم سليمان بن عبد الملك من كل من كانوا يشجعون أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد، حتى قتل من بينهم اثنين من أعظم قواد الفتوح الإسلامية، هما: محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم. وترتب على هذا انشقاق في البيت الأموي، فكانت فرصة ثمينة لمن رغب في إسقاط حكمهم.

المحاضرة الثانية

المحاضرة: الثانية (02)

أغراض الشعر الأموي وتطوره

أصابت الدولة الإسلامية في العصر الأموي حظًا كبيرًا من الاتساع والتحضر عن طريق الفتوحات، والتطور العمراني والسياسي والعلمي، فقد ألقت الفتوحات إليها بالمال. أما التطور العمراني فتمثل في اقتباس أساليب العمران والزراعة والإدارة التي تمثلت في تطوير الدواوين وتنظيم شؤون الحكم والمال، فضلاً عن اتساع مجالات الاستثمار. كما تطورت مظاهر الحياة المادية، من مسكن وملبس ومأكل ومركب.

ظهرت في العصر الأُموي تيارات علمية ثلاثة هي تيار التراث الجاهلي شعرًا وقصصًا وأمثالاً وأنسابًا، وتيار التراث الإسلامي تفسيرًا وحديثًا وفقهًا وقراءاتٍ وسيرة، وتيار الثقافات الأجنبية أدبًا وترجمة ومعارف منوعةً. فنشأت من ثمّ مدارس فكرية متعددة، تباينت في الأخذ بواحد من هذه التيارات، أو بالجمع بينها

والفتوحات بدورها قد أثمرت رصيدا من المعارف الأجنبية، وأثمرت أيضًا هذا الثراء الواسع، وهذا الخليط من الأجناس الذي امتزج بمجتمعات الحواضر العربية، وكان له تأثيره في العادات والتقاليد، ثم في إحداث حركة عريضة في الغناء والموسيقى، وكان له أثره في الشعر العربي، كما كان لما أحدثه من اتساع بالغناء أثره أيضًا في ذلك الشعر. وهنا تبرز أسماء لمشاهير المغنِّين والمغنيات مثل طُوَيس ومَعْبد وسائب خاثر، وعزة الميلاء وسلاَّمة القَس وجميلة.

أدت الحواضر العربية دورًا كبيرًا في الحركة الأدبية العقلية والغنائية، إذ عملت كل من البصرة والكوفة على جمع التراث العربي الإسلامي، رواية وتدوينًا، لغةً وشعرًا وأخبارًا وحديثًا وفقهًا. وتهيأت المدينتان الكبيرتان لأن تكونا مدرستين متنافستين في رواية الأدب، ثم في اللغة والنحو. أما مكة

والمدينة فاشتهرتا بالعلوم الدينية، كما نشطت فيهما حركة الشعر. وأما سوق المربد فتحوّل من مجرد سوق إلى مركز أدبي نشط على مشارف البصرة.

عرف العصر الأموي عددًا من الفرق الدينية السياسية، كالشيعة والخوارج والزُّبيريين، وكان لكل فرقة رجالها وآراؤها في الخلافة، بل كان لكل فرقةٍ شعراؤها وخطباؤها ومنابرها، وقد دخلت هذه الفرق في صراع ذي شقين: شِق سياسي، حيث قاوموا حكم الأمويين بالمعارضة والجدل، وشّق عسكري تمثل في مقاومة الأمويين بالحروب والثورات .وانعكس صراع تلك الفرق على الحياة الأدبية من جَدل ومناظرات قوامها البرهان والدليل.

الشعر

.ارتبط الشعر العربي بالعصر الأموي ارتباط الخصوصية، بمعنى أن ثمة فنونًا شعرية جديدة ظهرت في العصر الأموي واختفت بزواله، فالنقائض بشكلها المعروف وتقاليدها الجديدة هي ثمرة من ثمار الشعر الأموي، وكان أبرز شعرائها الفحول الثلاثة، جرير والأخطل والفرزدق. كما أن الشعر السياسي بصبغته المعروفة هو ابن شرعي لهذا العصر، فقد كان لكل فرقة شعراؤها، مثل الكميت شاعر الهاشميين، وابن قيس الرقيّات شاعر الزبيريين وغيرهما.

أمّا الغزل فبالرغم من أنه من أغراض الشعر القديمة المعروفة، إلاّ أنه لقي في هذا العصر اهتمامًا كبيرًا، وأصبح تيارًا قويّا له شعراؤه وجمهوره ومدارسه، وكان أشهر تياراته تيار الغزل العذري العفيف وزعيمه جميل بن معمر، والغزل الصريح اللاهي وزعيمه عمر بن أبي ربيعة.

وعلى كلٍّ فإنّ بني أمية كانوا يتمتعون بحظٍ أدبي عربي جعلهم يشجعون الشعراء ويعقدون لهم المجالس، ويُجزلون لهم العطاء، بل كان منهم شعراء ذوو أثر في حركة الشعر كالوليد بن يزيد.

كما كان بعضهم يكتب إلى الشاعر أو الراوية فيستقدمه من العراق إلى الشام على البريد كما فعل هشام ابن عبد الملك مع حماد الراوية.

المحاضرة الثالثة

شعراء أمويون: (عمر بن أبي ربيعة، الأخطل)

أولا؛ عمر بن أبي ربيعة:

أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، المولود سنة 23 هـ / 643م يتيم الأب، وحيدًا لأم أغدقت عليه من الدلال ما يليق بحجم ثراء عائلته ورفعة نسبه، فنشأ ذلك الشاب الثري الوسيم مفرطًا في اللهو، ومتباهيًا بموهبة الشعر في مجتمع نبلاء مكة الذي كان يعج بالجواري الجميلات المتهاديات على وقع الموسيقى وتفانين الغناء الحجازي.

فما لبث هذا الشاعر الثري حتى جعل من شعره مقصد الطرب وموضع الألحان التي كان يستدرج صناعها، عبر جوائزه المالية، نحو صناعتها على هدي من أوزانه وقوافيه، فسالت وديان مكة بالأغاني والأصوات المتكئة على قصائده، وسارت بين أروقتها حكاياته مع النساء المنتميات لمختلف طبقات المدينة المترفة آنذاك. فلم يمنعه نسبه القرشي ومحتده النبيل من التغزل بالجواري اللاهيات فتنة وشبابًا، ولا بسيداتهن المترفات غنجًا ودلالاً، وكان العامل المشترك الأول بين سيدات المجتمع المكي وجواريه لدى ابن أبي ربيعة، أنهن نساء جميلات، يلقن بالغزل ويليق بهن، بمعزل عن انتمائهن الاجتماعي.

إنه الشاعر الذي أجمع على شعريته، الخارجة عن نطاق الطبقات، التي كانت تتخذ معيارًا لمستوى الشاعر في زمنه، شاعران متناقضان للدرجة التي جلعت منهما رمزًا دائمًا لفن النقائض، ونعني بهما جرير والفرزدق ، فقد قال الأول عنه: «ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر»، أما الآخر، فقال وصفًا لقصيدة لابن أبي ربيعة «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه، فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه» وعلى هامش من الرأي المتوافق للشاعرين غير المتوافقين سئل حماد الراوية، باعتباره أحد أشهر نقاد ذلك العصر الذي انتمى إليه الشعراء الثلاثة، عن شعره فقال: «ذاك الفستق المقشر.

ولـ «الفستق المقشر» لدى عمر بن أبي ربيعة مدرسة صار رائدها الأول، في وقت لم يكن الشاعر فيه قادرًا على تجاوز مألوف الشعر إلى نوابغ أهله إلا عبر التجويد في أبوابه التقليدية فمدح وهجا وافتخر ورثى. أما أن يقصر شعره كله على باب المرأة وصدى معانيها في مرآة ذاته، وعلى ذاته وصدى معانيها في مرآة المرأة، فهذا هو الجديد الذي بنى عبره شاعر قريش الأول، كما نظر إليه كثيرون، مجده الشعري ومعنى وجوده الإنساني في معظمه. وله في ذلك من القصص ما امتلأت به كثير من الكتب، واحتفى به كثير من المؤرخين والمؤلفين مأخوذين بفرادة الشاعر المحلق خارج السرب كله بأجنحة من هوى وقصيد.

ولعل قراءة نفسية سريعة لديوان شاعرنا تكشف لنا عن خبرة عميقة في النفسية النسوية بشكل عام تميز بها الشاعر، ووظفها التوظيف الأمثل في شعره، فبالرغم من عنايته بأوصافها الخارجية، كما فعل غيره من شعراء العرب، غاص ابن أبي ربيعة في دواخلها فأتى بكثير جديد مما لم يرد في أشعار من سبقه ومن لحقه أيضا.

وبالرغم من أن شاعر المرأة الأول، كما يحلو للبعض أن يسميه، كان موكلاً بالجمال يتبعه حيث ذكر حتى في الحرم المكي، كما تقول الكثير من الروايات التي أسهبت في توصيف حكاياته معهن في أجواء فريضة الحج تحديدًا، فإن ذلك لم يشغله عن النظر إلى المرأة، حيث جعل من نفسه موضوعًا شعريًا ممتزجًا بموضوعه الأثير، فكان والمرأة مزيجًا من الغزل المتبادل بينهما على لسانه عبر حواريات شعرية تميزت بطرافة غير معتادة في النسيب العربي التقليدي. ولعل في الحوارية النسوية بامتياز، التي نقلها لنا الشاعر في واحدة من قصائده الشهيرة صورة لشعرية ابن أبي ربيعة الغزلية بطبيعتها المزدوجة، فيقول:

بينما ينعتنني أبصرنني ... دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟ ... قالت الوسطى: نعم.. هذا عمر
قالت الصغرى، وقد تيمتها: ... قد عرفناه. وهل يخفى القمر؟

ولأن القمر يظل لا يخفى أبدًا، فها نحن ننظر إليه ونستمتع بجمالياته الخالدة عبر مختارات انتقيناها لهذا العدد من ديوانه الذي قصره على الغزل لولا بعض الأبيات المتفرقة في الفخر والوصف،

والتي ربما قالها عندما تقدمت به السن وانقطع إلى حياة التوبة والنسك قبل أن يتوفاه الله سنة 93 هـ / 711م.

نسبه:

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة. كان جده أبو ربيعة يلقب بـ «ذي الرمحين لطوله، وكان يُقال: كأنه يمشي على رمحين، وقيل إنه قاتل يوم عكاظ برمحين، فسُمي ذا الرمحين لذلك. وكان والده عبد الله يُسمَّى في الجاهلية، بجيراً، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، وكانت قريش تُلقّبه «العدل» لأنها كانت تكسو في الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة، ويكسوها هو من ماله سنة، فأرادوا بذلك أنه وحده عِدل لهم جميعاً في ذلك، وكان تاجراً موسِراً

مولده:

ولد عمر في السنة ٢٣ هـ / ٦٤٤م في الليلة التي قُتِل فيها عمر بن الخطاب على الأرجح، فقيل: «أي حقٌّ رُفع، وأي باطل وضع». ولا يُعرف بالتأكيد مكان ولادته، فقد يكون الجَند في اليمن، وهي المدينة التي اتخذها والده مقراً لتجارته، أو مكة، وهي موطن العائلة أو المدينة، وهي مسرح نشأته.

نشأته:

نشأ عمر في المدينة نشأة الترف والجاه وكان له من الجمال والمال ما فتح له أبواب الملاهي على مصراعيها .وكان شديد الولع بالنساء، فلم تكن تسنح له فرصة اجتماع بإحداهنَّ، أو بجماعة منهنّ حتى ينتهزها بشوق، متنقلاً من ملهى إلى متنزه إلى رحلة صيد. بعد المدينة انتقل عمر إلى مكة، وفيها واصل حياته اللاهية، مستغلاً مواسم الحج للقيام بمغامراته مع النساء، ليت **ذا** الدهر **كان** حتماً علينا.

وقضى عمر قسماً كبيراً من حياته لاهياً متنقلا من حبيبة إلى أخرى؛ ولسان حاله يقول:

سلامٌ عليها ما أحبَّتْ سلامنا... فإن كرهته فالسلام على أخرى

لكنه تاب في أواخر حياته، وقيل: ((فتك عمر أربعين ونسك أربعين))، يريدون أنه عاش في **غوايته** أربعين سنة، تمّ تاب في الأربعين الباقية. ومع أنه ليس من الثابت أن عمر أدرك الثمانين، ومع أن الصناعة واضحة **في** هذا القول الذي يريد **أن** يوازن بين حياتي الشاعر، فإنّه من الثابت أنَّ عمر أقصر عن اللهو في أواخر أيامه، بعد أن هدأت فيه سورة الطيش الجامحة

يروى عنه أنه نذر أن يُعتق عبداً من عبيده كلّما قال **بيتاً** من الشعر. واتفق يوماً أنه رأى شاباً يكلّم فتاةً في الطواف، ثمّ علم أنّ الفتاة ابنة **عمه**، وأنهما تحابا، ولكن عمه كلفه من المهر ما لا يطيق، فصحب عُمر الفتى إلى عمه، وخطب لـه ابنته، ودفع عنه المهر. وقد أثرت هذه الحادثة فيه، فقال شعراً مطلعه:

تقولُ وليدتي لما رأتني... طريتُ، وكنتُ قد أقصرتُ حينا
أراك اليوم قد أحدثت... شوقاً وهاج لك الهَوَى داءً دفينا

وقد بلغ عدد الأبيات تسعة فبرّ بنذره واستدعى تسعة من عبيده وأعتقهم .

<u>موته:</u>

تضاربت الروايات في سبب موت عمر، فقيل إنّه غزا في البحر، فأحرقت سفينته ومات، وقيل إنّ امرأةً دعت عليه لأنه ذكرها في شعره، فهبت عليه ريح وجرحه غصن شجرة استتر بها فمات، وقيل إنّه مات في اليمن. وقيل: مات غرقا خارجا في جهاد؛ فقالوا: عاش سعيدا، ومات شهيدا. وكما اختلفت الروايات في سبب موته، اختلفت أيضاً في زمن وفاته، وأغلب الظن أنه توفّي في السنة 93 **هـ** /712م.

ثانيا؛ الأخطل:

(19- 92هـ، 640-710م). غياث بن غَوْث ابن الصَّلْت بن الطارقة. ينتمي إلى قبيلة تغلب. وأمه ليلى من إياد، وكنيته أبو مالك، ولقبه دَوْبَل. أحد شعراء العصر الأموي وأحد فرسان النقائض الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل، وقد غلب لقب الأخطل على اسمه الأصلي. نشأ بذيء اللسان فلقب الأخطل (أي السَّفيه) وكان على النصرانية دين قومه تغلب.

جعله ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين. نشأ في بادية الجزيرة وصار بينه وبين شاعر تغلب الفذ كعب بن جُعَيْل هجاء مر كشف عن شاعر شاب في مقتبل العمر يستطيع أن ينهض في شعره، ويدافع عن مكارم قومه. وأتاحت له الأقدار في شبابه فرص الظهور والتميز، إذ انتهت حروب علي ومعاوية بغلبة معاوية. وكانت تغلب من أهم القبائل التي وقفت مع معاوية، وعندما استتب الأمر له بدأت ظاهرة التذمر من أهل العراق والحجاز.

وحدثت بين الأمويين والأنصار (وكانوا مغاضبين لبني أمية) معركة شعرية احتاج يزيد بن معاوية فيها إلى لسان شاعر يدفع عنه ما أصابه من هجاء، فهاب الشعراءُ الأنصارَ وهجاءَهم. ولم يجد كعب بن جُعَيْل . الشاعر الأموي . بُدًا من تزكية الأخطل ليزيد بن معاوية، فهو الشاعر الذي يُقْدِم على مثل هذه المخاطرة الكبرى، وقد فعل، فهجا الأنصار واتصلت بعد ذلك أسبابه بالبيت الأموي حتى صار في عهد عبد الملك بن مروان شاعر الخليفة الرسمي.

ومثلما كان يزيد سببًا في هجاء الأخطل للأنصار، كان بشر بن مروان أخو عبد الملك بن مروان سببا جرَّه إلى حومة النقائض بين جرير والفرزدق حين دعاه إلى أن يحكم بينهما، وأن يُفَضِّل أحدهما على الآخر، ففعل بعد تردد، ووصف حكومته (أي حُكُمَه) بينهما بأنها مشؤومة. والأخطل صاحب المقولة المشهورة في تلك الحكومة: جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر.

وحدث ما توقع الأخطل فهجاه جرير هجاء مرًا ورد الهجاء بمثله وتحولت معركة جرير معه إلى نقائض أخرى تضعضع فيها أمام جرير في بعض المواقف ولم ينهزم حتى آخر لحظة من حياته وهو يجود بنفسه إذ قال عند موته، وقد طُلب منه أن يوصي:

أوصي الفَرَزْدَقَ عِنْدَ المَمَاتِ ... بِأُمِّ جَرِيْرِ وأَعْيَارِهَا

ولم يمنع الموت جريرًا أن ينقض ذلك فقال:

وَزَارَ القُبُورَ أَبُو مالِكِ ... فَأَصْبحَ ألأمَ زُوَّارِهَا

عالج الأخطل في شعره مختلف الأغراض وإن غلب المدح والوصف عليه. وديوانه محقق مطبوع. والنقائض مطبوعة أيضًا. وقد حفلت كتب مختارات الأدب بكثير من شعره في مختلف الأغراض. يقول في مدح الأمويين:

أعطاهم الله جَدًّاً يُنْصرون به ... لا جَدَّ إلا صغير بعدُ مُحْتَقَرُ

شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم ... وأعظمُ الناس أحلامًا إذا قدروا

ويقول في الهجاء الساخر المتهكم:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبَهم ... قالوا لأمهم بُولي على النار

وقد استأثرت الخمر بأوصاف كثيرة من صوره الشعرية، ويعزى ذلك إلى نصرانيته واستغراقه في الشراب، من ذلك قوله:

خَفّ القَطين، فراحوا منك أو بَكَروا ... وأزْعَجَتْهُم نَوى في صَرْفِها غِيَرُ

كأنني شارب يوم استبدَّ بهم ... من قَرْقفٍ ضمنتها حمص أو جَدَرُ

جادت بها من ذوات القار مترعةٌ ... كلفاءُ يَنْحَتُّ عن خرطُومها المدَرُ

ويستهل كذلك إحدى نقائضه بالخمر فيقول:

بكر العواذل يبتدرن ملامتي ... والعالمون فكلهم يلحاني

في أن سُقيت بشربة مقذية ... صَرْف مشعشَة بماء شُنان

فظللت أسقي صاحبي من بَرْدِها ... عَمْدًا لأرويه كما أرواني

وذكرت إذ جرت الشمال فهيجت ... شوقًا لنا ريّا وأم أبانِ

المحاضرة الرابعة

المحاضرة: الرابعة (04)

فنون النثر في العصر الأموي وتطوره

النثر. وأول فنونه وأكثرها ازدهارًا فن *الخطابة السياسية*، الذي نهضت به عوامل مختلفة، أبرزها العوامل السياسية ممثلة في الفرق والثورات المختلفة، ثم عروبة بني أمية وولاتهم من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم هناك عامل الجهاد الذي اتسع في عهد الدولة الأموية بحكم رغبتهم في توسيع رقعة الدولة الإسلامية.

وهناك عامل آخر مهم هو نمو تيار الوعظ الديني، الذي تمخض عن خطباء كُثْر. وأشهر الخطباء الأمويين معاوية نفسه وعبد الملك بن مروان وعمر ابن عبد العزيز. ومن ولاتهم الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه. أما خطباء الفرق، فإن أشهرهم من الخوارج أبو حمزة الشاري ونافع بن الأزرق والطرمَّاح بن حكيم. ومن خطباء الزبيريين رئيسهم عبد الله بن الزُّبير نفسه.

وإلى جانب الخطابة السياسية عرف العصر الأموي *الخطابة الدينية الوعظية*، ومن أشهر خطباء هذا التيار: سعيد ابن جُبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّب والحسن البصْري. وقد اتسع هذا التيار الخطابي وكثر رجاله، وزخرت المصادر بنصوصه. كما وُجدت خطابة الوفود إذ كان معاوية بن أبي سفيان أول من فتح أبواب قصره للوفود التي وفدت إلى ساحته. وممن خطب بين يدي معاوية سحبان وائل والأحنف بن قيس.

شهد فنَّ الكتابة "الرسائل الديوانية" نقلة كبيرة في العهد الأموي خاصة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحيى الكاتب. فقد عُرِف عبد الحميد بالبراعة

في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل: " بدئت الكتابة بعبد الحميد ". ومن رسائله المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق، ورسالته التي وجهها إلى عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى الكُتَّاب وأصبحت دستورًا لمهنة الكتابة.

وفي مقابل الرسائل الديوانية، يوجد نوع آخر من الرسائل يعرف *بالرسائل الإخوانية*، وهي التي يكتبها الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة.

وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هي *رسائل وعظية*، ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

المحاضرة الخامسة

المحاضرة: الخامسة (05)

ناثرون أمويون:

(عبد الحميد الكاتب، والحجاج بن يوسف)

عبد الحميد الكاتب

عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشي، ؟ – 132هـ، ؟ – 749م). من أعلام الكتاب في القرن الثاني للهجرة، فارسي الأصل عربي الولاء. نشأ في الأنبار أو الشام على خلاف بين المؤرخين. وظهر في بداية أمره مساعدًا لصهره سالم صاحب ديوان **الرسائل** في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم عمل بعد ذلك كاتبًا لمروان بن محمد والي أرمينيا وأذربيجان، ثم عمل أخيرًا كاتبًا أول للدولة الأموية على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولكنه قتل مع خليفته على يد العباسيين عندما تولوا الحكم.

يُعد عبدالحميد من أبرز الكتاب في تاريخ النثر العربي؛ فهناك شبه إجماع بين المؤرخين والنقاد على أنه كان صاحب مدرسة جديدة في كتابة الرسائل في النثر العربي عمادها مايلي:

1–الازدواج، أي إيراد عبارات متعددة متقاربة في المعنى لتوكيد فكرته، ولإشاعة جو من التنغيم الموسيقي الجميل في كتاباته.

2–الإطناب في رسائله

3–الإطالة في تحميدات رسائله.

4–الإكثار من الوصف بالحال

5–قصر الفواصل على طريقة الخطابة.

6–توسيع أغراض الرسائل، لتشمل بعض الأغراض التي كانت . قبله . خاصة بالشعر، مثل التعزية والتهنئة والنصح والوصف وغيرها. وقد تأثر بهذه المدرسة عدد كبير من الكتاب الذين جاءوا بعده.

وبالرغم من أننا لا نملك ديوانًا خاصًا برسائله، إلا أن كتب الأدب قد حفظت لنا قدرًا طيبًا من رسائله الديوانية والإخوانية، لعل من أهمها:

1–رسالته إلى الكُتاب، وفيها يبدو تأثره بما أُثِرَ من وصايا ملوك الفرس لكتابهم.
2–رسالته التي كتبها إلى عبد الله بن مروان على لسان أبيه.
3–رسالته في وصف الصيد والشطرنج.
4– رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد.

ويعد عبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي، حتى صارت بلاغته مضرب المثل، فقد قيل: فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وكان اسم أبيه داذويه، وكان كاتبًا، ولي للحجاج خراج فارس فخان وأخذ من الأموال، فعذبه الحجاج، فتقفعت يده فلقب المقفع. وقيل: بل الذي عذبه يوسف بن عمر الثقفي الأمير.

وجد عبد الحميد الكاتب في القرآن الكريم ضالَّتَه، وأقبل بشغف على تعلم الشعر وحفظه، واطلّع على السير والمغازي والأخبار، وكان له اهتمام بعلم الحساب، مما زوّده بمادة ثقافية غنية ومتنوعة كانت أساساً من أسس نبوغه، وجاء عمله في ديوان هشام ليضيف إلى ذلك الإرث الثقافي خبرة عملية واسعة، فضلاً عن استفادته من رسائل الفرس الأدبية التي أُثرت عن الساسانيين، والتي يقال إنه كان أحد نَقَلَتِها إلى العربية. فصار أبلغ كتّاب الدواويين في العصر الأموي وأشهرهم على الإطلاق فقيل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد، واختتمت بابن العميد».

وقال فيه صاحب كتاب الوفيات ابن خلكان: "عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي بن غالب، الكاتب البليغ المشهور؛ وبه يضرب المثل في البلاغة، حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً، وهو من

أهل الشام، وكان أولاً معلم صبيةٍ يتنقل في البلدان، وعنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا.

وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل، ومجموع رسائله مقدار ألف ورقة. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده، وكان كاتب مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي، فقال له يوماً وقد أهدى له بعض العمال عبداً أسود فاستقله: اكتب إلى هذا العامل كتاباً مختصراً، وذمه على ما فعل، فكتب إليه " لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته، والسلام ".

ومن كلامه أيضاً: القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة. وقال إبراهيم بن العباس الصولي، وقد ذكر عبد الحميد المذكور عنده: كان والله الكلام معاناً له، ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لي مثل كلامه. وفي رسالة له " والناس أخياف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم علق مضنة لا يباع، وغل مظنة لا يبتاع " وكتب على يد شخص كتاباً بالوصاة عليه إلى بعض الرؤساء فقال: " حق موصل كتابي إليك عليك كحقه علي إذ رآك موضعا لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله ". ومن كلامه " خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً ". وكان كثيراً ما ينشد:

إذا جرح الكتاب كانت دويهم ... قسياً وأقلام الدوي لها نبلا

وله رسائل بليغة. وكان حاضراً مع مروان في جميع وقائعه عند آخر أمره، وقد سبق في أخبار أبي مسلم الخراساني طرف من ذلك. ويحكى أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يحوجهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى أو أقتل معك؛ وأنشد:

أسر وفاء ثم أظهر غدرةً ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهر ذكر ذلك أبو الحسن المسعودي في كتاب " مروج الذهب ". ثم إن عبد الحميد قتل مع مروان، وكان قتل مروان يوم الاثنين ثالث عشر ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، بقرية يقال لها بوصير من أعمال الفيوم بالديار المصرية، رحمهما الله تعالى.

ترجمة الحجاج بن يوسف

الحَجَّاج بن يوسف الثقفي (41 – 95هـ، 661 – 713م). الحجاج بن يوسف الثقفي من فصحاء العرب، ويعد في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر الأول. وهو سياسي محنك، وقائد عسكري وخطيب مفوه. من دعائم دولة الأمويين حيث نصر حكمهم بيده ولسانه.

وُلد في الطائف ونشأ بها، وتلقى تعليمه الأول على يدي والده؛ إذ كان معلم صبيان، فامتهن مهنة أبيه في شبابه. ويذكر بعض المؤرخين امتهانه الدباغة أو بيع الزبيب. وكان قصيرًا دميمًا قاسيًا.

كانت الظروف التاريخية التي أعقبت وفاة معاوية بن أبي سفيان، وإمرة ابنه يزيد وما حفلت به من اضطرابات وفتن؛ قد دفعت به إلى الحياة العسكرية، فأظهر فيها قدرته على القيادة، مما جعل عبدالملك بن مروان يوليه إمرة الجيش المكلف بالقضاء على حركة عبدالله بن الزبير بمكة، فلم يترك وسيلة لإثارة الرعب إلا ركبها، فحاصر مكة وضربها بالمنجنيق، فتفرقت الجموع من حول ابن الزبير، وقاتل حتى قتل فصلبه الحجاج، ولم ينزله من مكان صلبه إلا بأمر عبدالملك، فكافأه عبدالملك على هذا النجاح بتوليته العراق إضافة إلى الحجاز.

فذهب إلى العراق واليًا، حيث الفتن تمور، وهيبة الدولة مستباحة وسلامتها مهددة؛ إذ كثرت أعمال العصيان والتمرد والتعدي على الولاة وطردهم، فقرر إعمال القسوة وسياسة القبضة القوية، كما يظهر من بياناته الأولى في خطبتي التتويج في الكوفة والبصرة، وضرب العصبيات بعضها ببعض، ثم عمل على احتوائها واستثمار عنفوانها في القضاء على الخوارج وأشكال التمرد في أطراف الدولة كامتناع ملك سجستان عن دفع الخراج، ثم في القضاء على تمرد ابن الأشعث وملاحقة الخوارج. ولهذا عرف بأنه اليد القوية لعبد الملك بن مروان في تأسيسه الثاني للدولة الأموية وتثبيت دعائمها.

ساعدت منجزاته في تأمين سلامة الدولة الأموية وتثبيت كيانها، وعودة هيبتها. وقد ساعده على النجاح قدرة بيانية استغلها استغلالا جيدًا في خطبه وبياناته، ويدللون على هذه القدرة بأنه واحد من أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل، وهم: الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج وابن القرية. لم تقف إنجازاته للدولة عند الجانبين العسكري والسياسي فحسب، بل تعدتهما إلى الجوانب الحضارية والثقافية، فبأمره عرِّب ديوان العراق من الفارسية، وبأمره أعجم القرآن ونقط.

وتحتفظ كتب الأدب وتأريخه بقدر كبير من أخباره السياسية والأدبية: وتُعد خطبه لونًا جديدًا من ألوان الخطابة السياسية؛ إذ ترسم سياسة الدولة وتقدم فصاحة وبلاغة تبهر السامعين وتستأثر بأسماعهم. ومن أشهر هذه الخطب تلك التي خطبها في الكوفة حين قدم واليًا على العراق، واستهلها بقول الشاعر:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وكان بصيرًا بالشعر، تذوقه ونقده. فقصده الشعراء ولزموا مدحه وإذاعة أخباره الحربية. وكان الشعراء الأمويون الفحول مقدمين في ذلك، ومنهم جرير والفرزدق والأخطل. وكما مدحه هؤلاء فقد هجاه نفرٌ من شعراء الأحزاب الأخرى وعلى رأسهم شعراء الخوارج، والشعراء الزبيريون.

صورة الحجاج في التاريخ:

زعم قوم أن الحجاج بلاء صبه الله –عز وجل– على أهل العراق بدعوة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– إذ قال: ((اللَّهمّ أن أهل العراق قد ليسوا على ما ليس لهم، اللَّهمّ عجل لهم الغلام الثقفيّ الّذي يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ)).

وروى هذا الخبر أبو عرفة الحضرمي من أهل الشام وروى أن عمر أتاه خبر العراق وأنهم حصبوا أمامهم وسمعت غير واحد يقول: بل كانت دعوة علي قال: ((اللَّهمّ كما نصحتهم وغشّونى وآمنتهم فحافوني ابعث فيهم فتى يحكم بحكم الجاهليّة)).

حلية الحجاج ونسبه وحرفته:

قالوا كان الحجاج رجلاً أخفش حمش الساقين منقوص الجاعرتين صغير الجثة دقيق الصوت أكتم الحلق وهو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن مسعود بن عامر من أجلاف ثقيف وكنيته أبو محمد وأمه سمته كليباً وكان أول أمره أن يعلم الصبيان بالطائف وأول ولاية وليها تبالة بالحجاز فلما أشرف عليها احتقرها وانصرف فمن ثم يقال في المثل أهون من تبالة على الحجاج ثم ولي على شرط أبان بن مروان ثم جعله عبد الملك على ساقته عند رجوعه إلى الشام ثم بعثه لقتال ابن الزبير فقتله وولاه الحجاز ثلاث سنين ثم ولاه العراق.

قدوم الحجاج العراق وأخباره إلى أن مات

قالوا ولما دخل الحجاج العراق دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى أكثر وجهه متقلدا سيفا ومتوكّئا قوساً فصعد المنبر وسكت ساعة حتى قال بعض الناس قبح الله بني أمية حين يستعملون مثل هذا على العراق وقال عمير بن ضابئ البرجمي ألا أحصبه لكم فقالوا: أمهل حتى ترى فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام ونهض قائما:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

والله يا أهل العراق إنّي أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها فكأني أنظر إلى دماء من فوق العمائم واللحى

هذا أوان الحرب فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضم
قد شمرت عن ساقها فشدوا ... وجدت الجرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد ... مثل ذراع البكر أو أشد

إني والله ما يقعقع لي بالشنان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين [F؟ 205 v؟] مثل كنانته فعجم عيدانها عوداً أعور فوجدني أشدها عوداً وأصلبها مكسرا فرماكم

بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحرضنّكم حرص السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية ((كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً من كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذاقَهَا الله لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ)).

إني والله ما قلت إلا وقيت ولا أهم إلا مضيته وإن أمير المؤمنين أمرني بأعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم باللَّه لا أجد رجلاً بتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلّا ضربت عنقه يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقام الغلام وقال بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً. فقال الحجاج: يا غلام اكفف، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه، هذا أدب ابن نهية.

أما والله لأؤدبنكم غير هذا، اقرأ يا غلام، فقرأ ثم نزل، ووضع للناس أعطياتهم، فجعلوا يأخذون حتى أتى شيخ قد انحنى كبرا، فقال أيّها الأمير إن بي من الضعف ما ترى، وإن ابني هو أقوى على الأسفار مني، أفتقبله بدلاً مني؟ فقال نفعل أيها الشيخ. فلما ولي قيل له: هذا عمير بن ضابئ البرجمي دخل على عثمان مقتولاً فوطئ بطنه حتى كسر ضلعين من أضلاعه؛ فقال: أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان يوم الدار بدلاً؛ إن في قتلك لصلاحاً للمسلمين، يا حرسي: اضربا عنقه. وفيه يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

تجهّز فإمّا أن تزور ابن ضابئ ... عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ... ركوب حولياً من الثلج أشهبا

يحذر الناس عن التخلف إلى الخروج إلى قتال الأزارقة ونادى الحجاج في الناس أن عميراً أتانا بعد ثالثة قتلناه فمن وجدناه بات بعد هذه الليلة فقد برئ الله من دمه، فلم يبق أحد إلا لحق بالمهلب. وجدَّ المهلب في قتال الأزارقة وهم الخوارج إلى أن مات نافع بن الأزرق، فولى أصحابه عليهم عبيد الله بن ماحوز وقال شاعرهم:

فلئن أمير المؤمنين أصابه ... ريب المنون ومن يصبه يعلق

نعم الخليفة من حذانا نعله ... ذاك ابن ماحوز [1] بقية من بقي

ولما رآهم المهلب بالأمداد التي وردت عليه من جهة الحجاج أجلاهم إلى حدود الأهواز وفارس وفيه يقول [خفيف]

قد نفينا العدوّ أمس عن الجسر ... وقد زحزحوا عن الأهواز

وطعان يهولك القرب منه ... وأشك الخطف للنفوس العزاز

وسار المهلب في إثر الخوارج الى خراسان فوقع قطري بن الفجأة المازني إلى طبرستان وكتب عبد الملك إلى المهلب بعهده على خراسان وقد كان وفاها مع الحكم بن عمرو الغفاري أيام معاوية ولما غرق شبيب بن يزيد الخارجي في دجيل بعد إذ افترقت الأزارقة فرقتين فرقة مع قطري بن فجأة المازني وفرقة مع عبد [الرب] الكبير ومضوا حتّى أتوا سجستان وأصل الخوارج بها منهم إلى اليوم فلحقهم المهلب وقاتلهم وقتل عبد الرب [الكبير]

وصار قطري إلى سجستان فبعث الحجاج سفيان الكلبي في إثره حتى قتله وحمل إليه رأسه وكان يكنى أبا نعامة وقاتلهم عشرين سنة يدعي الخلافة وكان شبيب هذا أحد الرجال المذكورين بالبأس والنجدة وبلغه تهدد الحجاج إياه فجاء مع امرأته غزالة في فوارس دون عشرين حتى دخلوا الكوفة ووقفوا بباب قصر الحجاج ونادته غزالة يا حجاج هل لك في البراز فهابها وتحصّن وكانت غزالة نذرت أن تبول على منبره فدخلت مسجد الكوفة وبالت على المنبر وقام شبيب في الصلاة فصلّى ركعتي الفجر قرأ في إحداهما بالبقرة وفي الأخرى بآل عمران ولم يجسر الحجاج أن يفتح باب قصره إلى أن انصرفوا ثم جعل الناس يقولون:

أوفت غزالة نذرها ... يا رب لا تغفر لها

وقيل فيما يهجا به الحجاج بن يوسف [متقارب]

غزالة في مائتي فارس ... يئط العراقان منها أطيطا

وخيل غزالة تحوى النهاب ... وتسبي السبايا وتجبي النبيطا

وكتب عمران بن حطان إلى الحجاج وكان يمشى متواريا لأنّه كان يطلبه

أسد علي وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل عن صفير الطائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت منابره كأمس الداثر
هلا خرجت إلى غزالة في الوغى ... أم كان قلبك في جوانح طائر

وسار المهلب إلى ما وراء النهر وغزا السغد فصالحه ملكهم طرخان على مال وانصرف عنه وبعث موسى بن عبد الله بن خازم إلى الترمذ، فأغار عليها وعلى ما يليها، وولى عبد الملك بن مروان عبيد الله بن أبي بكرة سجستان، وكان جواداً شجاعاً، فغزا كابل فدهمهم العدوّ في مضيق التجأوا إلى عقر دوابهم فأكلوها؛ وبلغ الرغيف سبعين درهماً فمات عبيد الله والخلق معه بالجوع والسيف ولم يلق جيش في الإسلام ما لقوا وفيه يقول أعشى همدان:

أسمعت بالجيش الذين تمزقوا ... وأصابهم ريب الزمان الأعوج
لبثوا بكابل يأكلون جيادهم ... في شر منزلة وشر معرج
لم يلق جيش في البلاد كما لقوا ... فلمثلهم قل للنوائح تنشج

ثم بعث الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس على العمال التي كان يليها عبيد الله بن أبي بكرة وجاء وغزا رتبيل بناحية بست وصالحه على مال وغزا كابل وافتتح قصوراً من قصور العجم وأصاب سبايا وغنائم وكتب إلى الحجاج فكتب إليه أن توغل في البلاد يريد بذلك هلاكه فاستعصى ابن الأشعث وجمع الجموع وتوجه نحو الحجاج.

المحاضرة السادسة

المحاضرة: السادسة (06)

الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي

العصر العباسي656 – 132 هـ = 749 – 1258م

قامت الدولة العباسية على أثر ثورة ضد الأمويين كان العباسيون قد أعدّوا لها في روية وإحكام وسريّة عام 132هـ، 749م. وسقطت الدولة العباسية بسقوط بغداد على أيدي التتار عام 656هـ، 1258م. وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم هذه الخلافة العباسية إلى ثلاثة عصور هي : العصر العباسي الأول، من قيام الخلافة العباسية إلى أول خلافة المتوكل (132 – 232هـ، 749 – 846م)، والعصر العباسي الثاني334– 232) هـ، 846 – 945م) من خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية، والعصر العباسي الثالث (334 – 656هـ ، 945 – 1258م) من استقرار الدولة البويهية إلى سقوط بغداد على أيدي التتار.

العصر العباسي الأول (132 – 232هـ ، 749 – 846م). حققت الدولة الإسلامية في ظل العباسيين تقدمًا حضاريًا كبيرًا، إذ أفادت من جهود الأمويين ثم زادت عليها أضعافًا تأليفًا وترجمة، فضلاً عن ازدهار فنون الغناء والموسيقى والعمارة، وازدهار وسائل العيش في الملابس والمساكن والطعام والشراب .وكان لخلفاء بني العباس إسهام كبير في تشجيع المدّ الحضاري وتغذيته، فعقدوا المجالس للأدباء والعلماء والمغنين، وأجزلوا العطاء، وأنشأوا المكتبات ودور العلم، وجلبوا الكتب الأجنبية من شتى البقاع.

كانت دمشق حاضرة الخلافة الأموية، ثم صارت بغداد حاضرة العباسيين، وزخرت بالشعراء والعلماء وأهل الفن. وإذا كان الأمويون أدخلوا الثقافة البيزنطية، فإن العباسيين قد تأثروا بالثقافة والحضارة الفارسية.

كان من الأمور الناجمة عن الثراء والترف والامتزاج بالشعوب التي فتحت بلدانها أن نشأت تيارات منحرفة تمثلت في الشعوبية والزندقة والمجون .أما الشعوبية فهم أولئك القوم الذين عادوا العرب، ولم يروا فيهم إلا بدوًا ورعاة غنم وسكان خيام، ومجرّد قبائل لم تجمعهم دول منظمة مثل غيرهم من الأمم كالروم والفرس. ويعكس تيار الشعوبية حقد الشعوب المغلوبة على الأمة العربية التي حباها الله برسالة الإسلام، وحقق لها الغلبة على أعداء هذه الرسالة. ومن أشهر دعاة الشعوبية: علاَّن الشعوبي وسهل ابن هارون وبشار بن بُرد وأبو نواس.

يفسّر الجاحظ في عبارة له تيار الشعوبية فيقول: "إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدّي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة". وعبارة الجاحظ هنا تصور بدقة العلاقة بين الزندقة والشعوبية باعتبارهما تيارًا معاديًا للعرب والإسلام معًا .

أما الزندقة، فقد نجمت عن الامتزاج بشعوب من نحَل وديانات شتى، منها المانوية والمزْدكية والزرادشتية. وقد تعقَّب خلفاء بني العباس هذا التيار بحزم، وبخاصة الخليفة المهدي، الذي اتخذ ديوانًا خاصًا لتعقّبهم. وكان للكتب التي حملت أفكار الزندقة أثرها في طائفة من ضعاف النفوس. ويوجد دائمًا في فترات الانفتاح العقلي من يولع بالتقليد لأرباب الأفكار الشاذة المستوردة، ويميل إلى اعتناقها والولاء لها أكثر من أربابها.

ومن أشهر زنادقة ذلك العصر: ابن المقفَّع، الذي قال فيه الخليفة المهدي: "ما وجدت كتاب زندقة قطّ إلا وأصله ابن المقفع". ومن هؤلاء الزنادقة أيضًا: صالح بن عبد القدوس الشاعر، وبشّار بن بُرد. وإذا كنا قد خصصنا المهدي بالإشارة في تعقب الزنادقة فإنّ غيره من خلفاء بني العباس لم يقلوا عنه تحمسًا للعقيدة وتعقبًا لأعدائها من الزنادقة.

وإذا كان الخلفاء وولاتهم قد تعقَّبوا الزنادقة قتلاً وقمعًا، فإن المتكلمين تعقبوهم حوارًا ومناظرة، وكثيرًا ما كان الحوار يجري بحضور الخليفة. كما تعقَّبوهم أيضًا من خلال نقض آرائهم في مقالاتهم ورسائلهم ومناظراتهم .

أما تيار المجون، فقد كان أيضًا أحد الوجوه السلبية للاختلاط بالأعاجم وانفتاح المجتمع العربي المسلم على عقائدهم وعاداتهم وأخلاقهم من خلال هذا الاختلاط ومن خلال حركة الترجمة والنقل التي اتسعت في هذا العصر اتساعًا عظيمًا. والأمر الذي لا شك فيه أنه كان ثمة علاقة وثيقة بين هذه الظواهر الثلاث، وهي: الشعوبية والزندقة والمجون، وذلك بحكم أنها جميعها كانت صادرةً عن مصدر واحد، هو المصدر الأجنبي، كما كانت صبغة العداء للدولة الإسلامية تشكِّل عاملاً مشتركًا بينها. وحين نطالع المصادر الأدبية في العصر العباسي يطالعنا أدب مصطبغ بالمجون في شعره وقصصه وأخباره .وفي كتاب الأغاني الكثير من أخبار أبي نواس وأشعاره، وكذلك مطيع ابن إياس وحماد عجْرد، وسواهم.

ومع كل ما تقدم فلا ينبغي التصور بأنَّ حياة المجتمع العباسي قد أسلمت قيادها تمامًا للشعوبية والزندقة والمجون، وأن هذه الحياة قد تحلَّلت من كل قيود العقيدة والأخلاق، فلقد كان لتيار الدين سلطانه الذي لم يُقهر، إذ ظهر الزهد والزهَّاد، بل ظهرت بواكير التصوف، هذا إلى جماهير العلماء والوعاظ وأهل النُسْك، ومجالسهم التي عمرت بها أرجاء بغداد في مساجدها ورباطاتها وقصورها. ومن هؤلاء عبد الله بن المبارك، وسفيان الثَّوري، ومعروف الكرْخي، وابن السَّمَّاك. كما كان من وعاظ البصرة: موسى الأسواريّ الذي وصفه الجاحظ بقوله: " كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية."

على أنه ينبغي ألا نُغفل تيار الحركة العقلية، إذ نضجت العلوم، ورسخت مناهج البحث فيها، وكثرت المؤلفات في علوم الدين عقيدة وشريعة، فضلاً عن المؤلفات اللغوية والنحوية، وكتب الأدب الخاص، ودواوين الشعراء. وقد كان التيار الديني والتيار العقلي يحاولان معًا كبح تيارات الشعوبية والزندقة والمجون. وإذا كانت هذه التيارات قد أحدثت آثارها السَّلبية في المجتمع فإنها شكلت لونًا

من ألوان التحدي للعقل العربي، فراح يقاومها بكل سبيل، كما حفزت همم أهل الغيرة الدينية للتصدي لها والتغلب عليها. وهكذا شهدت الساحة لونًا من الصراع العقلي والروحي. فكان للإسلام تأثيره الواسع في أنحاء الدولة الإسلامية، وانتشرت اللغة العربية، وتعربت الشعوب الأعجمية. وإذا كان من الأعاجم من عادى الإسلام وأهله، فإن جمهورهم الغالب كان سندًا للإسلام، وعضدًا للمسلمين.

المحاضرة السابعة

المحاضرة: السابعة (07)

أغراض الشعر العباسي وتطوره

حقق الشعر في هذا العصر تطورًا كبيرًا في أغراضه وأفكاره وفي شكله الفني، وزنًا وقافية ولغة. وهذه نتيجة طبيعية لاتساع جوانب التجربة العقلية عن طريق الترجمة والاختلاط بأجناسٍ بشرية مختلفة، وتطور المعارف الدينية واللغوية والأدبية، واتساع حركة التأليف، وظهور المعارف الفلسفية. وفي هذا العصر ظهر من يطلق عليهم الباحثون الشعراء المحدثون، أو الشعراء المولّدون، مثل بشار وأبي نواس ومطيع بن إياس.

وترتب على تطور الشعر في تلك الحقبة نشأة صراع حادٍ بين أولئك المحدثين، ومن تصدّى لهم من المحافظين فيما يسمى اصطلاحًا قضية عمود الشعر .أي: (الأصول التقليدية المرعية للقصيدة العربية). وكان للغويين خاصة دور كبير في تمثيل تيار المحافظين، وبخاصة في جانبي اللغة والصورة الفنية للقصيدة العربية. وقد تبدت مظاهر التطور الشعري في الأغراض والمعاني، والوزن، والقافية، وبناء القصيدة، واللّغة.

الأغراض والمعاني.

هناك أغراض جدّت واستحدثت، وأغراض بقيت على ما كانت عليه، مع شيءٍ من التجديد في بعض عناصرها. فمما جدَّ من الأغراض الزهد الذي كان أبو العتاهية رمزًا بارزًا له، وهناك أبو نواس، وهو وإن اشتهر بالمجون والخمريات، فقد ألمّ بشيء من الزهد في بعض شعره في أخريات حياته. وقد كان هذا الزهد إسلاميَّ الطابع، ومن هنا حفلت الزهديات بالكثير من قيم التقوى وترقب

يوم الحساب والإعراض عن ملذَّات الحياة الزائلة. وكان هذا الشعر يمثل تيار ردّ الفعل لشعر المجون والخمريات. ومن الأغراض الجديدة الشعر التعليمي. كما ظهر لون جديد من الشعر هو الشعر الفكاهي الذي ضم النوادر المضحكة، والمعاني الفكهة. وقد هيّأ لظهور هذا اللون الجديد جو المرح واللهو في هذا العصر، وانتشار مجالس الأنس والسّمر، خاصة في قصور الخلفاء والولاة والأعيان. ومن هذا ما نجده لدى بشّار في أبيات له تحكي قصة عشق حمارٍ لأتانٍ، وفيها يقول بشّار على لسان حماره:

سيدي مِلْ بعناني نحو باب الأصبهاني

إن بالباب أتانًا فَضلتْ كلَّ أتان

تَيَّمتني يوم رحنا بثناياها الحسان

وبحسنٍ ودلالٍ سلَّ جسمي وبراني

ولها خدٌ أسيل مثل خد الشيفران

ثم سأل أحدُ الجالسين بشارًا عن معنى لفظ الشيفران، فأجابه بشار: هذا من غريب الحمار فإذا لقيتم حمارًا فاسألوه. وواضح أن الكلمة مرتجلة إمعانًا من الشاعر في التفكُّه، وكان تفسير بشار لها أكثر فكاهةً. وواضح من الأبيات سخرية الشاعر من شعراء الغزل في عصره خاصة. كما أن هذا اللون الجديد من الشعر الفكاهي قد استخدمه فريق من الشعراء للسخرية والنقد لبعض ما لا يروقهم من الأفكار والعادات.

ظهر في هذا العصر أيضًا ما يسمى بشعر الطرديات وهو ذلك الشعر الذي يصف رحلات الصيد والطرائد وكلاب الصيد والصقور، وما إلى ذلك. وهذا الغرض وإن كانت له جذور فيما سبق من العصور فقد اتسعت جوانبه، وتفنن فيه الشعراء حتى صار فنًا جديدًا، وكان أبو نواس من أبرز الشعراء ميلاً لهذا الغرض. ولا شك أن حياة الترف والثراء كانت وراء هذا الغرض الشعري. كما ظهر

شعر الشكوى من البؤس، الذي كان تعبيرًا عن بعض مظاهر الفقر، كما كان سواه صدى لحياة الثراء والترف.

وقريب من شعر الشكوى من البؤس شعر الشكوى من العاهات، وهو ضرب من رثاء ما ذهب من الأعضاء أو الحواس، مثل أشعار أبي يعقوب الخريمي الذي أكثر من بكاء عاهة العمى لديه، وتصوير مشاهده ومواقفه بكل صدق. وقد كان هذا الغرض الشعري وأمثاله من الأغراض نتيجة لعمق الوعي بالذات، فضلاً عن رقَّة المشاعر التي اكتسبها الشعراء، خاصة بحكم ما أصاب الحياة من التحضر والرفاهية. كما أن دقة تصوير الشعراء للنفس البشرية في أدق خلجاتها كانت نتيجة لاتساع ألوان الثقافة، التي تثري التجربة الشعرية وتكسبها العمق والاتساع.

أما الأغراض التي بقيت مع شيء من التطوير فمنها، على سبيل المثال، المديح، وهو غرض عريق شائع في الشعر العربي، غير أن الشعراء المحدثين أثروه بما أدخلوا عليه من عمق التحليل للفضائل النفسية والخلقية، نتيجة لما اكتسبوه من الثقافات، ومثل ذلك شعر الهجاء، فقد تناولوه أيضًا بشيءٍ من البسط والتحليل للأخلاق، ولكن في جوانبها السلبية. على أن شعراء هذا العصر بمدائحهم وأهاجيهم قد تغلغلوا في النفس البشرية وكشفوا عن كوامنها، كما أنهم بتناولهم للفضائل والرذائل رسموا المثُل التي ينبغي الإقبال عليها.

ولعل شعر الرثاء، وإن كان غرضًا قديمًا، قد أصابه حظ غير قليل من التطور، فلم يعد رثاءً للناس فحسب، بل صار رثاءً للمدن والأماكن، كرثاء بغداد على أثر ضربها بالمنجنيق في عصر الأمين، حيث عمّها الخراب، وعاث في جوانبها المفسدون. كما طرأ تغيُّرٌ على الرِّثاء ليصبح رثاءً للحيوان والطيور المستأنسة، وقد استكثر أحمد بن يوسف الكاتب من هذا اللون الطريف، الذي يدل على اتساع آفاق الإبداع الشعري نتيجة لاتساع آماد الثقافة.

ويمكن القول إجمالاً أنه ما من غرض شعري قديم إلا دخله التطوير والتجديد على أيدي الشعراء المحدثين، على تباين في ذلك.

اللغة.

امتدت حركة التجديد في الشعر إلى اللغة وذلك من جملة وجوه توجز فيما يلي:

أولاً: سهولة الشعر، ولا يعني هذا أن الشعراء المولعين باللفظ الغريب قد انقرضوا، فقد بقي منهم أمثال أبي البيداء الرياحي وابن الدُّمينة وأبي ضمضم الكلابي، وقد كانوا من أهل البادية، كما كانوا رواة للشعر القديم وللغة.

على أن هذه اللغة السهلة التي عمد إليها الشعراء المحدثون، لقيت إنكارًا من علماء اللغة الذين لم يكن ذوقهم يسيغ إلا الشعر القديم بألفاظه الغريبة، وذلك لسببين: الأول يتعلق بقضية الاحتجاج اللغوي، والثاني أنهم كانوا يقتصرون على رواية الشعر القديم ويتخذونه مادةً للتعليم، ويعتقدون أن هذا الشعر القديم هو الوعاء الحقيقي لأصول اللغة.

ثانيًا: استخدام بعض الألفاظ الأعجمية، ومن أشهر الشعراء في ذلك أبو نواس إذ كان يستكثر من هذه الألفاظ، حتى لتأتي بعض عباراته الشعرية فارسية خالصة، ولا شك أن امتزاج الأعاجم بالعرب قد قيَّض لهذا الشعر شيئًا من الرواج.

ثالثا: مخالفة بعض الشعراء للأقيسة المعروفة في اللغة، مما جعل نقاد هذا العصر يتهمون الشعراء بالخروج على أصول العربية، مع أن في كثير من مخالفات هؤلاء الشعراء ما يمثل لهجة عربية أو يكون من قبيل الضرورات الشعرية. يقول ابن قتيبة . دفاعًا عن لغة أبي نواس: "وقد كان أبو نُواس يُلَحَّنُ في أشياء من شعره لا أراه فيها إلا حُجّة من الشعر المتقدم وعلى علَّةٍ بيِّنة من علل النحو."

وخلاصة ما تقدم أن التجديد في عنصر اللغة خاصة قد أثار تيار الصراع بين القديم، الذي كان يمثّله اللغويون بمعاييرهم التقليدية المتشددة، وبين الشعراء المولدين يساندهم فريق من أنصار حركة التجديد، وعلى رأسهم ابن قتيبة.

الأوزان.

تطور شعر هذا العصر في أوزانه، فعمد المولَّدون خاصة إلى المقطعات وإلى المجزوءات، واستكثروا من الأوزان الخفيفة الزاخرة بالإيقاع وبخاصة المقتضب والمتدارك، والوزن الأخير أغفله الخليل واستدركه عليه تلميذه الأخفش.

وفي تجديد الشعراء في القافية استحدثوا ما يسمى بالمزدوج والمسَمّطات .والمزدوج نوع من النظم المتعدد القوافي، إذ تختلف القافية فيه من بيتٍ إلى بيت، ثم تتحد القافية في الشطرين المتقابلين، وتكون على بحر الرجز. وقد كثر استعماله في المنظومات التعليمية بوجه خاص.

أما المسمَّطات فهي قصائد تتألف من أدوار، يتركب كل دور من أربع شطرات أو أكثر، وتتفق شطرات كل دور في قافية واحدة، عدا الشطر الأخير، فإن قافيته تكون مخالفة.

بناء القصيدة.

من أهم عناصر التجديد الشعري ما يتعلق ببناء القصيدة، فقد تخلَّص الشعراء المولّدون من المقدمات الطللية التي كانت لدى القدماء، وتجاوزوها إلى أطلال مستحدثة اقتضتها تطورات الحياة، فكان هناك أطلال القصور في المدن تستقل بها قصائد تامة، ولا تتوقف عند المقدمة، ومنها سينية البحتري التي وقف فيها على أطلال إيوان كسرى وصوَّر لوحاته الفنية المنقوشة على جدرانه. وأحيانًا يستخدم الشاعر العباسي مقدمات لقصائده في وصف الطبيعة في المدن، وهي تتمثل في الحدائق التي افتن العباسيون في تنسيقها، كما اتخذوها متنزهات لهم.

المحاضرة الثامنة

شعراء عباسيون (الشريف الرضي، الطغرائي)

أولا: الشريف الرضي

أبو الحسن محمد بن طاهر (406 – 359هـ، 970 –1016م) من شعراء الشيعة بالعراق في القرن الرابع الهجري. لُقِّبَ بالشريف الرضي الموسوي، لأن نسبه ينتهي إلى موسى الكاظم، ومنه إلى الحسين بن علي. كما أن والده كان نقيب الأشراف الطالبيين على عهده، ثم آلت هذه النقابة إلى الشريف الرضي نفسه في عام 388هـ ووالده مازال حيًا. وأما أخوه فهو الشريف المرتضي الذي يكبر الرضي بنحو أربع سنوات.

اشتهر الشريف الرضي بالإبداع الشعري والتأليف الأدبي. فأما الشعر فقد تفتحت له قريحته بعد سن العاشرة بقليل، ثم ما لبث أن تفوق وذاعت شهرته فيه. وكان شديد التأثر بأبي الطيب المتنبي، حتى يمكن أن يُعدَّ تلميذًا نابهًا في مدرسته. وقد أثنى عليه صاحب اليتيمة فقال عنه: "لو قلت إنه أشعر قريشٍ لم أبعد عن الصدق."

تكاد الصورة النفسية في شعر الرضي تتطابق مع مثيلتها في أشعار أبي الطيب، من حيث الطموح إلى المعالي، وعلو الهمة، والجرأة في المجاهرة بالرأي، والميل إلى الشكوى من الزمان، مع النزوع إلى الحكمة.

وقد عرف الشريف الرضي بمراثيه، إذ مضى يرثي أبويه، وشيوخه وطائفة من أصدقائه، بما يشف عن وفائه لهم. كما مضى . على عادة أبناء طائفته يرثي الإمام الحسين رضي الله عنه.

يبرز نشاطه في التأليف ما ناله من العلم الوفير على أيدي العلماء من المفسرين واللغويين والنحاة، فضلاً عن الفقهاء وعلماء الاعتزال. ومن أشهر تآليفه: نهج البلاغة في كلام الإمام علي رضي الله عنه؛ كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن؛ كتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل؛

كتاب المجازات النبوية؛ أخبار قضاة بغداد؛ شعر ابن الحجاج. ومن تآليفه أيضًا سيرة والده ثم ديوان رسائله.

من أشهر قصائده الغزلية قوله:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاكِ

الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلاّ مدمعُ الباكي

سهم أصَابَ ورامِيه بذي سَلَم من بالعراق لقد أبعدت مرماكِ

حكت لحاظكِ ما في الرِّيم من مُلح يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

أنت النعيم لقلبي والجحيم له فما أمرَّكِ في قلبي وأحلاكِ

حياته:

هو أبو الحسن محمّد الحسين بن موسى بن ابراهيم المرتضي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب، ولد سنة 359هـ / 970م. كان والده أبو أحمد الحسين الموسوي سفير الخلفاء والملوك، أسندت إليه نقابة الطالبيين وإمارة الحج والنظر في المظالم. وقد كلّفه الخليفة العباسي الطائع تسكين الفتن المتتالية في بغداد أيام ملوك الديلم البويهيين، وبين العسكرين البغدادي والفارسي، وبين الشيعة والسنة.

وإلى بعض الفتن يشير ولده الرضي بقوله: وَخَطب على الزَّوراءِ أَلْقَى حِرانَهُ مديد النواحي مُدْلَهم الجوانب سَلَلْتَ عليهِ الحَرْمَ حَتى جَلَوْتَهُ كما انجابَ غَيْمُ العارض المُتَرَاكب وعندما كبر وقصّر عن تصريف الأمور بدأ ولداه الرّضي والمرتضي ينوبان عنه في بعض المهمات. وفي عام 369هـ/ 980م قبض عضد الدولة البويهي على أبي أحمد الحسين الموسوي وعلى أخيه أبي عبد الله أحمد وعلى قاضي القضاة أبي محمد، وسيرهم الى فارس. وظل أبو أحمد معتقلاً سبع سنوات لأسباب بقيت مجهولة. في هذه الأثناء كبر الرضي وتمرّس في النظم والنثر، وترك قصائد تتسم بالحزن والشكوى.

ولما توفي عضد الدولة (372هـ/982م، نشب الصراع بين ولديه شرف الدولة وصمصام الدولة، وآلت النتيجة الى انتصار شرف الدولة، فدخل بغداد ظافراً، وكان قد أطلق سراح الشريف

الوالد ورفاقه وصحبهم الى مدينة السلام. فنظم الرضي قصيدة تعكس فرحه بحرّية، أبيه، وممّا جاء فيها:

طُلوع هداه إلينا المغيب ... ويوم تمزق عنه الخطوب
لقيتُك في صدره شاحباً ... ومن حِلْيَةِ العربي الشُّحوب
قَدِمْتَ قُدومَ رقاق السَّحَابِ ... تَخْطُ والرَّبْعُ رَبِّعٌ جديبُ
فما ضحك الدهر إلا إليك ... مُذْ بَانَ في حَاجِبَيْهِ القُطوب

ومدح شرف الدولة وشكره على ما عمله بقصيدة طويلة مطلعها:

أحظى الملوكِ مِنَ الأيام والدُّوَلِ ... من لا يُنادِمُ غير البيض والأسل

ولما توفي والد الرضي أبو أحمد الموسوي رثاه شاعرنا بقصيدة طويلة مطلعها:

وَسَمَتْكَ حالية الربيع المُرْهَم ... وَسَقَتْكَ ساقِيَةُ الغَمَامِ المُرْزِم

أمّا أم الرضي فهي فاطمة بنت الحسين الناصر الذي عظم شأنه في أيام معز الدولة البويهي. وولي جده لأمه نقابة العلويين في بغداد بعد أن اعتزلها والد الرضي. وقد ذكره شاعرنا في إحدى قصائده عندما أظهر طرفي المجد في نسبه قائلاً:

أرُدُّ النَّوائب بالموسوي ... وأعطى الرّغائب بالناصر

وكان للنسب الشريف أثره في تكوين شخصية الرضى. ففي القرن الرابع الهجري كانت علية المجتمع البغدادي تنقسم إلى فئات: فئة تعتز بشرفها ونسبها ودمها كالعلويين والعباسيين والبويهيين والمهلبيين، وفئة تعتز بمناصبها كالوزراء والقادة ورؤساء الدواوين، وفئة تفاخر بعلمها ودينها وأدبها كالفقهاء والمتكلمين والأدباء وكان الرضي في صميم الأسرة العلوية، وتأتيه القرشية الصريحة من رسول الله عن طريق ابنته فاطمة، وهذا ما ترك فيه نفساً فاخرة طبعت أدبه بميسم

مؤلفاته:

كان عمر الشريف الرضى القصير حافلاً بالنشاط، فقد كان يؤلّف ويدرس وينظر في أمور الناس. ترك في النشر كتباً متنوعة الموضوعات لم يصلنا منها إلا القليل، وأهمها: أخبار قضاة

بغداد، الحسن في شعر الحسين، خصائص الأئمة فضائل أمير المؤمنين، الى جانب جمعه آثار الإمام علي في كتاب نهج البلاغة.

ديوانه:

نال شعر الشريف الرضي إعجاب الأدباء والنقاد. ويُذكر أنه قصائده بنفسه، ثم اهتم ولده عدنان بجمع شعره. وقد يجمع أشار كارل بروكلمان الى أماكن مخطوطات الديوان في مكتبات العالم، في مصر وسوريا والعراق والمغرب وإيران والهند. وقد طبع للمرة الأولى في بيروت ثم في القاهرة.

شعره:

عالج الشريف الرضي في شعره موضوعات المدح والرثاء والفخر والنسيب والوصف والهجاء والحكمة والزهد وسوى ذلك. وللمديح نصيب كبير في الديوان فقد كانت للشاعر صلاته بالخلفاء والملوك والوزراء. ومن الشخصيات التي مدحها نذكر شرف الدولة البويهي، والصاحب اسماعيل بن عباد وأخاه فخر الدولة، وأبا الحسين الناصر الصغير خال الشاعر وأبا الفتح عثمان ابن جنّي النحوي، والخليفة العباسي الطائع لله، وبهاء الدولة وسواهم. أما أبرز المعاني المدحية الشجاعة والكرم والعدل وسداد الرأي، وكان بصورة عامة اتباعياً، ويجنح الى المبالغة في بعض معانيه وعلى العموم فانه ارتفع عن التكسب ولم يتزلّف.

الرثاء:

وعلى صعيد الرثاء يلاحظ المتتبع لشعر الشريف الرضي أنه أمام شاعر كثير البكاء على الراحلين من أقاربه وأصدقائه، دائم الحزن والألم بسبب ما فعلته الأيام بأهل بيته الطالبيين وقد وجد بيته الطالبيين. وقد وجد في مأساة الحسين، صريع كربلاء، متنفساً لهمومه ومجالاً للتعبير عن آلام الشيعة، فنهج في مراثيه للحسين منهجاً جديداً إذ افتخر بأهل البيت وذكر قبورهم وتشوّق إليها. والذين رحلوا في أيامه ورثاهم كثيرو العدد.

ومنهم: الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز شرف الدولة البويهي، أبو القاسم بن عباد، الطائع الله الخليفة، تقيّة بنت سيف الدولة الحمداني، بهاء الدولة البويهي وسواهم. ولم يكن رثاء الشريف

الرضي بكاءً وعويلاً بقدر ما جاء تسجيلاً للمناقب وتعداداً للفضائل كما يركز على مصير الانسان وعدم جدوى البكاء، ويشدّد على هول الفاجعة وأثرها، ويترك مجالا للتعزية والمواساة.

الفخر:

والفخر من الميادين التي جلّى فيها الشريف الرضي، فافتخر بنفسه وآبائه. وجاءت اندفاعاته الحماسية وثوراته الملتهبة في الافتخار بالبطولة والأنفة ظاهرة عامة في ديوانه وتعبّر قصائده الفخرية عمّا يجيش به صدره من أمان وطموحات، وما انطوت عليه نفسه من أخلاق وملكات.

النسيب:

وشعر الشريف الرضي في النسيب غاية في الرقة وإفصاح عن الأخلاق العالية وعن النفس التي صقلها الوجد وهذبها الألم. وهو لم يتغزل بفحش وتهتك، ولم يتغن بمفاتن الجسد أو الجوانب الحسية من الجمال. وله مجموعة قصائد غزلية سميت بالحجازيات نظمها في الحاجات اللواتي كن يقصدن الحجاز في مواسم الحج. وتمتاز قصائد الشريف الرضي على العموم، بطول النفس، وفيها توخى المطالع اللافتة وجعل الأجزاء متماسكة، وعمد الى اختيار الألفاظ الموحية، كما تتوفر فيها الأفكار التي تساعد على إعطاء صورة عن العصر. ويغتني شعره كذلك بالصور المتنوعة التي كانت سمة طبعت العصر العباسي.

وفاته:

في سنة 406هـ/1016م، توفي الشريف الرضي وهو في أوج الشباب، بعد أن أصيب بمرض مفاجئ.

ثانيا؛ الطغرائي:

مولده ونسبه:

العميد فخر الكتاب مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الدؤلي الكناني المعروف بالطُّغْرَائِيّ (455 – 513هـ/ 1061 – 1121م) شاعر، وأديب، ووزير، وكيميائي، من أشهر قصائده لامية العجم. ولد في أصفهان سنة (455 هـ) (1061 م) لأسرة عربية

الأصل من أحفاد أبي الأسود الدؤلي الكناني وكني بالطُّغْرَائِيّ نسبة إلى من يكتب الطُّغْرَاء وهي الطرَّة التي تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجلي.

مناصبه

برع في كتابة والشعر وترقت به الحال في خدمة سلاطين آل سلجوق إلى أن صار وزيرًا للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل.

ثم تولى وزارة ديوان الإنشاء وبلغ به الغاية في الجودة والإتقان، حتى إنه لم يكن يضاهيه في دولة بني سلجوق أحد حتى مقتله.

مقتله

وقعت بين السلطان مسعود السلجوقي وأخيه محمود نفرة وخلاف على الحكم وكانت الغلبة للسلطان محمود، فوقع الطغرائي في أسره، ورمي بالإلحاد من قبل بعض خصومه، وأفتى وزيره السميمري بقتله، فما كان من السلطان محمود السلجوقي إلا أن أصدر عليه حكم القتل لهذه التهمة، سنة (513 هـ) (1121م)، وقد جاوز الستين من العمر.

أدبه

عرف الطغرائي شاعراً وأديباً بالدرجة الأولى، فقد بلغ بأدبه وشعره منزلة رفيعة ومكانة سامية بين معاصريه، وكانت قصائده تسير بها الركبان وتتناقلها الرواة، ولا أدل على ذلك من شهرة قصيدته التي عرفت بلامية العجم، التي لاقت شهرة واسعة، وحظيت باهتمام بالغ في تاريخ الأدب العربي، لفصاحتها وجزالة معانيها، يقول عنها الصفدي: «اما فصاحة لفظها فيسبق السامع إلى حفظها، واما انسجامها فيطوف منه بخمر الأنس جامعا، وأما معانيها فنزهة معانيها».

ولأهمية هذه القصيدة فقد تناولها العلماء قديماً وحديثاً بالشرح والبيان، حتى بلغ عددهم الثلاثين، من أشهرهم: أبو البقاء العكبري (ت 616هـ) في كتابه: «شرح لامية العجم»، وصلاح الدين الصفدي، في كتابه: «الغيث المسجم في شرح لامية العجم»، وكمال الدين الدميري (ت 808هـ) في كتابه: «المقصد الأتم في شرح لامية العجم»، كما شرحها محمد بن عمر الحضرمي (ت 930هـ) في كتابه: «نشر العلم في شرح لامية العجم»، وممن شرحها من المتأخرين، المناوي

(ت 1335هـ) في كتابه:«تحفة الرائي للامية الطغرائي»، وأبو حامد البطاوري (ت 1355 هـ) في كتابه: «شافية الدُجم على لامية العجم».

وقد تميز شعر الطغرائي بالجودة والرقة والإبداع في كثير من جوانبه وأغراضه، يبرز ذلك جلياً في مثل قوله يصف الشمس والقمر:

وكأنما الشمسُ المنيرةُ إذْ بدتْ ... والبدرُ يجنَحُ للمغيب وما غَرَبْ
متحاربانِ لذا مِجَنٌّ صاغَهُ ... من فضةٍ ولذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ

وله البيت الشهير على الألسن، من لامية العجم الذي صار مثلاً:
أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ويقول مفتخراً بعلمة وما حصله من معارف:
أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ ببغْيتي ... منها فما أحتاجُ أنْ أتعلَّمَا
وعرفت أسرارَ الخليقةِ كلَّها ... عِلماً أنارَ ليَ البهيمَ المُظلما
وورثتُ هُرْمُسَ سِرَّ حكمتِه الذي ... ما زال ظنّاً في الغيوب مرجَّما
وملكتُ مفتاحَ الكُنوزِ بفطنةٍ ... كشَفتْ ليَ السرَّ الخفيَّ المُبْهَما
لولا التَّقِيَّةُ كنتُ أُظهِرُ معجزاً ... من حكمتي يشفي القلوبَ من العَمى
أهوى التكرُّمَ والتظاهرَ بالذي ... عُلِّمْتُه والعقلُ يَنْهَى عنهما
وأُريدُ لا ألقى غبيَّاً موسراً ... في العالمينَ ولا لبيباً مُعدِما
والناسُ إما جاهلٌ أو ظالمٌ ... فمتى أُطيقُ تكرُّماً وتكلُّما

علمه

برع الطغرائي في علم الكيمياء حتى عرف في كثير من المصنفات بلقب (الأستاذ)، وتكمن براعته في قدرته على فك رموز الكيمياء والكشف عن بعض أسراره. وقد بذل جهودا كثيرة في محاولة تحويل الفلزات الرخيصة من النحاس والرصاص إلى ذهب وفضة، وأفنى في سبيل ذلك جهدا ومالا كبيرين. من مؤلفاته في الكيمياء تراكيب الأنوار في الإكسير. أسرار الحكمة. جامع الأسرار في الكيمياء. الجوهر النضير في صناعة الإكسير. الرد على ابن سينا في الكيمياء.

الطغرائي شاعراً:

ا الطغرائي شاعر مرموق، وكاتب وخطاط، نظم الشعر وأجاده ومن ذلك؛ قصيدته في رثاء زوجته التي أخلص المودة لها، وقصيدته (لامية العجم) التي نالت شهرة كبيرة وترجمت إلى عدة لغات، غلبت شهرة شعره عليه رغم نبوغه في علوم أخرى، وكانت لديه القدرة على تصوير المواقف المختلفة في حياته لامتلاكه ناصية اللغة.

وصفه ابن خلكان بأنه غزير الفضل لطيف الطبع فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر، ووصفه ياقوت الحموي: أنه كان آية في الكتابة والشعر، وشعر الطغرائي غزير حوى فنوناً مختلفة من مدح وحماسة وفخر وغزل وإخوانيات الشكوى وحث على مداراة الناس، وله ديوان شعر مطبوع. كتب الطغرائي العديد من القصائد ونظم في كثير من أغراض الشعر العربي.

لكن قصيدته (لامية العجم) حازت شهرة منقطعة النظير وحظيت بعناية العرب واهتمامهم خلال العصور الأدبية المختلفة ولاقت اهتماماً واسعاً من الكتاب المستشرقين فأشادوا بها وبناظمها وترجموها إلى لغات شعوبهم كالفرنسية واللاتينية والإنجليزية. يقول عنها الصفدي: "أما فصاحة لفظها فيسبق السمع إلى حفظها، وأما انسجامها فيطوف منه بخمر الأنس جامها، وأما معانيها فنزهة معانيها ..."،

والقصيدة مليئة بالصور الرائعة، والأخلاق السامية، مليئة بالقيم والحكم والمُثل التي استخلصها من تجارب حياته، سميت لامية العجم بذلك تشبيها لها بلامية العرب للشنفرى لأنها تضاهيها في حكمها وأمثالها وهذه بعض أبياتها:

مجدي أخيراً ومجدِي أوّلاً شَرَعٌ ... والشمسُ رأْدَ الضُحَى كالشمسِ في الطَفَلِ
فيمَ الإقامُة بالزوراءِ لا سَكَني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جَملي
نَاءٍ عن الأهلِ صِفْرُ الكفِّ منفردٌ ... كالسيفِ عُرِّيَ متناهُ من الخَلَلِ
فلا صديقَ إليه مشتكَى حزَنِي ... ولا أنيسَ إليه منتَهى جذلي
طالَ اغترابيَ حتى حنَّ راحلتي ... ورحْلها وقرَى العَسَّالةِ الذُّبلِ
وضَجَّ من لَغَبٍ نضوي وعجَّ لما ... يلقَى رِكابي ولجَّ الركبُ في عَذَلي
أُريدُ بسطةَ كَفٍ أستعينُ بها ... على قضاءِ حُقوقٍ للعُلَى قِبَلي

والدهرُ يعكِسُ آمالِي ويُقْنعُني ... من الغنيمةِ بعد الكَدِّ بالقَفَلِ
وذِي شِطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ ... لمثلهِ غيرَ هيَّابٍ ولا وَكِلِ
حلوُ الفُكاهِةِ مُرُّ الجِدِّ قد مُزِجتْ ... بقسوةِ البأسِ فيه رِقَّةُ الغَزَلِ
طردتُ سرحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلتِه ... والليلُ أغرَى سوامَ النومِ بالمُقَلِ
والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ ... صاحٍ وآخرَ من خمر الهوى ثَمِلِ
فقلتُ أدعوكَ للجُلَّى لتنصُرَنِي ... وأنت تخذِلُني في الحادثِ الجَلَلِ

المحاضرة التاسعة

المحاضرة: التاسعة (09)

فنون النثر العباسي وتطوره

ما هو النثر:

لغة الكلام والكتابة العاديين. وهو أيضًا أحد شكلي التعبير الأدبي الرئيسيين. فالخطابات والصحف، ومقالات المجلات تكتب نثرًا. وكذلك سِيَر حياة الناس، والرسائل، والتاريخ، والقصص وأكثر المسرحيات. لا تلتزم أكثرية النثر بوزن متواتر. كما أن النثر يخلو من القافية، وهو ما يتميز به كثير من النظم الشعري وغالبًا ما يستخدم كُتّاب النثر أدوات شعرية كالجناس والطباق. وينظم بعض الكتّاب نثرًا بالغ التناغم وفي كثير من الأحيان لا يستطيع القارئ أن يميز تمييزًا واضحًا بين النثر، والشعر.

عرف العرب النثر في جميع عصورهم وعني به كبار كُتابهم وأدبائهم، وكانوا يهدفون من ورائه إلى التأثير في نفوس السّامعين والقُرّاء، ومن هنا كان اهتمامهم بالصياغة وجمال الأسلوب.

النثر العباسي الأول (132 – 232هـ = 749 – 846م):

في العصر العباسي خاصة تطوَّر النثر تطورًا كبيرًا، فعندما تدفقت ثقافات اليونان والفرس والهند، كان على العربية أن تستوعب كلَّ ذلك، وتُعبِّر عنه، كما قام علماء العربية بوضع العلوم الشَّرعيِّة واللغوية، وتمكن النثر العربي من حمل العلوم والفلسفة والآداب، في يسر وسلاسة. وقد أدَّى ذلك إلى تطور النثر في ألفاظه وصوره وتراكيبه ومصطلحاته وأساليبه وأفكاره، وظهرت جملة من أعلام الكُتّاب على رأسهم: ابن المُقفَّع، وسهل ابن هارون وابن الزيات، والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم.

ومن البديهي أن يتطور النثر كما تطور الشعر، بحكم أن النثر ألصق بالواقع وأن الحاجة إليه في أمور الحياة أكثر. وكان هذا التطور نتيجة طبيعية لهذا السيل من الثقافات الأجنبية المتنوعة في مصادرها وفي أجناسها، ونتيجة لاتساع مجالات الحياة في هذا العصر. وقد استجاب النثر

العربي لحاجات الواقع الاجتماعية والسياسية والعقلية والدينية، وأثبتت اللغة العربية مرونتها وقدرتها على التعبير عن هذه الحاجات جميعها. وسوف نتناول هنا . في إيجاز . أهم أشكال النثر في هذا العصر بادئين بفن الخطابة.

<u>الأشكال النثرية:</u>

أولا الخطابة:

عرف العصر العباسي أشكالاً من الخطابة، منها الخطابة السياسية، والخطابة الدينية، والخطابة الحفلية، فأما الخطابة السياسية فإنها قويت في أول العصر العباسي بحكم استخدام العباسيين لها في تثبيت سلطانهم ومقاومة أبناء عمومتهم من العلويين، وبسبب قوة القريحة التي تميز بها أوائل خلفاء بني العباس كأبي عبد الله السفّاح وأبي جعفر المنصور والرشيد والمأمون، لكن الخطابة السياسية لم تلبث بعد هذا أن ضعفت حين ترسخ سلطان العباسيين، وحين جاء من بني العباس جيل ضعفت فيه القريحة الخطابية، وبشكلٍ عام، فإن الخطابة السياسية لهذا العصر كانت أضعف مما كانت عليه في العصر الأموي.

عرف هذا العصر الخطابة الدينية، ومارسها بعض الخلفاء، وتوسع فيها الوعاظ. فمن الخلفاء هارون الرشيد، الذي تدل النصوص على بلاغته وقوة قريحته فضلاً عن تقواه وورعه. غير أن الخطابة الدينية لدى الخلفاء العباسيين باستثناء القلة النادرة كانت ضعيفة المستوى بشكل عام. أمّا الوعاظ فقد نهضت على أيديهم الخطابة الدينية بحكم تخصصهم وبسبب ما تميز به أكثرهم من الفصاحة والبيان، فضلاً عن سعة ثقافتهم. وعمق مشاعرهم الدينية.

وأشهر هؤلاء الخطباء الوعاظ عمرو بن عبيد المعتزلي واعظ الخليفة أبي جعفر المنصور، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي، وابن السمّاك واعظ الرشيد، ومنهم أيضًا موسى بن سيّار الإسواري، وصالح المرّي، ولهؤلاء نصوص خطابية أوردتها كبريات المصادر التاريخية والأدبية، ويزخر كتاب البيان والتبيين للجاحظ بالكثير من نصوصهم الخطابية، فضلاً عن وصف الجاحظ لهم ولأدبهم.

ثانيا المناظرة:

المناظرة، وقد بلغ في هذا العصر مبلغًا كبيرًا من الازدهار، فاق ما سبقه من العصور، والسبب واضح، وهو أن العصر شهد من اتساع المعارف وتنوعها الشيء الكثير، وجدير بهذا الاتساع والتنوع أن ينتج خلافًا في الآراء، واختلافًا في الاتجاهات، فكانت هناك الفرق التي تتناظر فيما بينها، أو تناظر إحداها خصوم الإسلام من أهل الكتاب وأصحاب العقائد الفلسفية وأهل الزنَّدقة. وأشهر هذه الفرق المعتزلة، وأشهر مناظريهم أبو الهذيل العلاف والنَّظَّام. وكان للمناظرة أكبر الأثر في نشأة علم البلاغة وتطوره، وذلك لحاجة المتناظرين إلى البيان الناصع والحجة القوية وحضور البديهة وتشقيق المعاني والقدرة على تحليلها.

ظهر نوع من المناظرة لا يقصد إلى انتصار عقيدة أو ترسيخ مبدأ، بل كان هدفه الجدل للجدل، والتدليل على البراعة في الاحتجاج والاستدلال، وهو لون من ألوان الترف العقلي الناجم عن سيطرة الجو الجدلي على ساحة المعرفة، وقدرة العقل على اكتساب المزيد من القدرة على الحوار والانتصار. فمن ذلك مثلاً تلك المناظرة الطريفة في المفاضلة بين جمال الديك وجمال الطاووس، ففريق ينتصر للأول، وآخر ينتصر للثاني، وكل منهم يورد من طريف الحجج ما يثير العجب حقًا.

ثالثا الرسائل:

ومن الفنون النثرية لهذا العصر فن الرسالة الديوانية وما يلحق بها من العهود والوصايا والتوقيعات.

النثر العباسي الثاني (232 - 334هـ = 846 - 945م):

الخطابة:

ضعفت الخطابة السياسية والحفلية في هذا العصر، وقويت الخطابة الدينية على أيدي الوعاظ والقُصّاص كما كان الحال في العصر السابق. وفي هذا العصر نشأت طائفة جديدة من الوعاظ، هم المذكّرون أي المتصوفة. ومنهم على سبيل المثال: يحيى بن معاذ الرازي، وأبو حمزة الصوفي. ويؤخذ على أفراد من هذه الطائفة أنهم أدخلوا في مواعظهم ما ليس من الإسلام مثل فكرة التناسخ وفكرة الحلول. ومن هؤلاء: أبو يزيد البسطامي، والحلاّج.

المناظرات:

وقد نشأت وازدهرت منذ العصر العباسي الأول . فقد تزايد الاهتمام بها، ولم تعد قاصرة على طائفة المتكلمين، بل تجاوزتها إلى الفقهاء واللغويين والنحاة. ومن أشهر المناظرات ما دار بين أبي علي الجبّائي المعتزلي وشيخه أبي الحسن الأشعري، وما دار بين أبي العباس بن سُريج الفقيه الشافعي وداود الظاهري، ثم محمد بن داود من بعده، وما دار بين أبي العباس المبرِّد النحوي البصري وأبي العباس ثعلب النحوي الكوفي، وما كان بين السيرافي النحوي ومَتَّى بن يونس المترجم المتفلسف. وكل هذا كان ثمرة طبيعية لتيارات الثقافات الواسعة والمتباينة، وبخاصة الثقافة الفلسفية.

أما الرسائل الديوانية فقد ظلت على نشاطها، وأبرز كُتّابها إبراهيم بن العبّاس الصّولي كاتب المتوكل وأحمد ابن الخصيب كاتب المنتصر.

النقد الأدبي:

حقق النقد الأدبي تقدمًا واسعًا شهده العصر مُمثلاً في كثرة النقاد وتنوع مناهجهم وشمولية النظرة للأدب. وأبرز نقاد هذا العصر ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء. انظر: الشعر والشعراء. كما شهد هذا العصر، أيضًا، نضجًا في التأليف البلاغي الذي لا يعدم صلته بالنقد الأدبي. وأبرز الأعمال البلاغية النقدية كتاب البديع لعبد الله بن المعتز مع نثار نقدي قليل ومتفرّق في كتابه طبقات الشعراء المحدثين، كما لايخلو كتاب الكامل لأبي العباس المبرد من نظرات نقدية بلاغية. انظر: الكامل في اللغة والأدب. هذا إلى ما للجاحظ من جهود رائدة في تأسيس البلاغة الممزوجة بنظرات نقدية صائبة. وبالجملة فإن القرن الثالث الهجري شهد ظهور أمهات كتب النقد الأدبي، التي غَدَت مصادر نقدية أساسية للعصور اللاحقة.

<u>النثر العباسي الثالث (334 - 656هـ ، 945 - 1258م):</u>

أبرز أشكال النثر في هذا العصر الفن القصصي، وقد حقق تقدمًا ملحوظًا، فلم يعد مجرد حكايات تراثية يرويها الأديب، ويُحدث فيها بعض التعديل، بل ظهر القصص الابتكاري. وتُعدّ مقامات بديع الزمان الهمذاني وتلميذه الحريري أوضح نماذج القصص الابتكاري الواقعي، ممزوجًا بصبغ تعليمي يتمثل فيما حوته المقامات من ألفاظ اللغة والألغاز والثروة البلاغية والنقدية. وإذا كان أدباء المتصوفة شاركوا في هذا العصر بأشعارهم، فقد شاركوا أيضًا بكتاباتهم التي تمثلت في تلك الابتهالات التي نجدها لدى أمثال أبي الحسن الشاذلي وتلميذه ابن عطاء الله السكندري.

وإلى جانب القصص الشعبي عرف هذا العصر النثر الفكاهي الذي دار حول النقد الاجتماعي للعادات والتقاليد والنقد السياسي لممارسات بعض الحكام. وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش نموذج لهذا اللون من القصص الفكاهي، الساخر من قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي ونائبه بمصر إبان الحروب الصليبية. فقد كان الرجل جادًا ملتزمًا في عمله إلى حد القسوة أحيانًا، مما جعل ابن ممّاتي يحمل عليه ويصوّره، في هذا الكتاب، بصورة ساخرة مبالغ فيها.

النقد الأدبي:

ازدهر النقد الأدبي ازدهارًا كبيرًا في هذا العصر منتفعًا بما سبق من جهود النقاد. وأهم النقاد في هذا العصر أبو هلال العسكري والقاضي الجرجاني والآمدي، وابن رشيق القيرواني وابن الأثير. وإذا كان أبو هلال العسكري يمثل الاتجاه النظري في النقد، متأثرًا بشيخه قدامة بن جعفر، فإن القاضي الجرجاني في الوساطة، والآمدي في الموازنة، يمثلان الاتجاه التطبيقي في النقد الأدبي.

أما كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، فيعد أشمل مؤلف في دراسة الشعر، إذ لا يقتصر على النقد بل يتجاوزه إلى البلاغة وبعض الثقافات التراثية التي تُعدّ، بحق، مفتاحًا لدراسة الشعر العربي القديم، وبخاصة الجاهلي. كما أن كتاب المثل السائر في أدب الشاعر والناثر لضياء الدين بن الأثير يُعدُّ نموذجًا للنقد الأدبي الذي يجمع بين الشعر والنثر.

أبرز الفنون الأدبية:

ما اصطُلح حديثًا على تسميته بالأدب الشعبي، مثل ألف ليلة وليلة ذات التأثير الواسع والعميق في الآداب العالمية، وسيرة عنترة، ثم هذا النوع من القصص الابتكاري، ومن أبرز نماذجه رسالة الغفران لأبي العلاء المعري

المحاضرة العاشرة

المحاضرة: العاشرة (10)

ناثرون عباسيون (داوود بن علي، الخوارزمي)

أولا داوود بن علي

قال ابن سعد: داوُدُ بنُ عَلىّ بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطَّلب وأمه أم ولد. وكان داود لما ظهر أبو العباس عبد الله بن محمد بالكوفة صعد المنبر ليخطب الناس فحصر فلم يتكلم، فوثب داود بن عليّ بين يدي المنبر فخطب وذكر أمرهم وخروجهم، ومنَّى الناس ووعدهم العدل، فتفرقوا عن خطبته. وولاه أبو العباس مكة والمدينة. وحج بالناس سنة اثنتين وثلاثين ومائة وهي أول حجة حجها ولد العباس. ثم صار داود إلى المدينة فأقام بها أَشْهُرًا، ثم مات سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة، وإنما أدرك من دولتهم ثمانية أشهر. وقد روى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وغيره عن داود بن عليّ بن عبد الله بن عباس. وروى داود عن أبيه.

وقال فيه الجاحظ: "من خطباء بني هاشم أيضا: داود بن عليّ، ويكنى أبا سليمان، وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول، ويقال إنه لم يتقدّم في تحبير خطبة قط. وله كلام كثير معروف محفوظ، فمن ذلك خطبته على أهل مكة:

"شكرا شكرا. أما والله ما خرجنا لنحتفر فيكم نهرا، ولا لنبني فيكم قصرا. أظن عدو الله أن لن نظفر به أن أرخي له في زمامه، حتى عثر في فضل خطامه. فالآن عاد الأمر في نصابه، وطلعت الشمس من مطلعها، والآن أخذ القوس باريها، وعادت النبل إلى النزعة، ورجع الحق إلى مستقره، في أهل بيت نبيّكم: أهل بيت الرأفة والرحمة".

ونقل الفاكهي من خطب داود بن علي: وذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة 132هـ، خطب الناس، فحمد الله –تعالى– وأثنى عليه، ثم قال: شكرا شكرا، أظنّ عدو الله–يعني: مروان بن محمد– أن لن نقدر عليه، أرجئ له زمانه حتى عثر في فضل [خطامه]،الآن أخذ القوس باريها، وطلعت الشمس من مطلعها، وعاد السهم إلى النزعة، وصار الأمر إلى أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وسلم،

أهل الرأفة والرحمة والمعدلة، إنّا والله ما خرجنا لنجري فيكم نهرا، ولا لنبني فيكم قصرا، لكم ذمّة الله– تعالى–وذمة العباس، لا وربّ هذه البنيّة لا نهيج منكم أحدا، ثم نزل.

فلم يمض يومان حتى تكلّم الناس في أبي العباس، فأمر بالمنبر، فوضع فركبه، فحمد الله– تعالى–وأثنى عليه ثم قال: عذرا عذرا يا أهل النكث والتبديل، ألم يزعكم الفتح المبين عن القول في أمير المؤمنين، كلا والله حتى يحمل أوزارهم وأوزار الذين خلوا من قبلهم، ها، ثم ما قامت شكاتكم، أحين احتصدتم لأمير المؤمنين فوفّركم، وأنزعتم دماءكم فحقنها، الآن يا منابت الدمن، إذ أصبح كبش الكفر فيكم نطيحا، ونابه مغلولا، وجمعه شذرا، أمسستم الغر، أو ذيّبتم في الجمر أم محمد والعباس؟ لئن عدتم إلى سقطات القول، لأحصدنكم [بظباة] الهند، وما ذلك [بعزيز] ثم يغني الله عنكم ويستبدل بكم قوما غيركم، ولا يكونوا أمثالكم.

وروى الفاكهي الخطبة برواية أخرى: "لَمَّا أَنْ حَجَّ بِالنَّاسِ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ أَوَّلَ سَنَةٍ اسْتُخْلِفَ أَبُو الْعَبَّاسِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، خَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: " شُكْرًا شُكْرًا، أَظَنَّ عَدُوُّ اللهِ يَعْنِي مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، أُرْجِئَ لَهُ زَمَانُهُ حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ، الْآنَ أَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا، وَعَادَ السَّهْمُ إِلَى النَّزْعَةِ، وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَعْدَلَةِ.

إِنَّا وَاللهِ مَا خَرَجْنَا لِنُجْرِيَ فِيكُمْ نَهْرًا، وَلَا لِنَبْنِيَ فِيكُمْ قَصْرًا، لَكُمْ ذِمَّةُ اللهِ تَعَالَى وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ، لَا وَرَبِّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ لَا نُهِيجُ مِنْكُمْ أَحَدًا "، ثُمَّ نَزَلَ فَلَمْ يَمْضِ يَوْمَانِ حَتَّى تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي أَبِي الْعَبَّاسِ، فَأَمَرَ بِالْمِنْبَرِ، فَوُضِعَ، فَرَكِبَهُ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: " عُذْرًا عُذْرًا يَا أَهْلَ النَّكْثِ وَالتَّبْدِيلِ، أَلَمْ يَزِعْكُمُ الْفَتْحُ الْمُبِينُ عَنِ الْقَوْلِ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، كَلَّا وَاللهِ حَتَّى يَحْمِلَ أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، هَا، ثُمَّ مَا قَامَتْ شَكَاتُكُمْ، أَحِينَ احْتُصِدْتُمْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَوَفَّرَكُمْ، وَأَنْزَعْتُمْ دِمَاءَكُمْ فَحَقَنَهَا، الْآنَ يَا مَنَابِتَ الدِّمَنِ، إِذْ أَصْبَحَ كَبْشُ الْكُفْرِ فِيكُمْ نَطِيحًا، وَنَابُهُ مَغْلُولًا، وَجَمْعُهُ شَذَرًا، أَمَسَسْتُمُ الْغُرَّ، أَوْ ذَيَّبْتُمْ فِي الْجَمْرِ أَمْ مُحَمَّدٌ وَالْعَبَّاسُ؟ لَئِنْ عُدْتُمْ إِلَى سَقَطَاتِ الْقَوْلِ، لَأَحْصُدَنَّكُمْ بِظُبَاةِ الْهِنْدِ، وَمَا ذَلِكَ بِعَزِيزٍ، ثُمَّ يُغْنِي اللهُ عَنْكُمْ وَيَسْتَبْدِلُ بِكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ".

وروى عنه البلاذري: وأما داود بن علي فقال: "فيكنى أبا سليمان، وكان لسنا خطيبا، ولي مكة والمدينة لأبي العباس، وأقطعه قطائع، وهو كان المتكلم يوم استخلف أبو العباس. وكان داود

في أيام بني أمية مع خالد بن عبد الله القسري، وكان خالد مكرما له، ولما قدم داود مكة واليا عليها قام خطيبا فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

والله ما قمنا إلاّ لإحياء الكتاب والسنة والعمل بالحق والعدل، وربّ هذه البنية، ووضع يده على الكعبة، لا نهيج منكم أحدا إلاّ أن يحدث بعد يومه هذا حدثا، أمن الأسود والأبيض، ممّن لم يأت بعد هذا اليوم سوءا ولم يحاول لأمرنا نقضا ولا علينا بغيا، ما بال الوحوش والطير تأمن في حرم الله ويخاف من أمنّاه على سالف ما كان منه.

وخطب داود بن على بالمدينة، فقال: أيها الناس. حتّام يهتف بكم صريخكم؟ أما آن لراقدكم أن يهب من نومه؟ (كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ)، أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟ هيهات منكم وكيف بكم والسوط في كفي والسيف مشهر:

حتى يبيد قبيلة فقبيلة ... ويعضّ كلّ مثقف بالهام
ويقمن ربات الخدور حواسرا ... يمسحن عرض ذوائب الأيتام

وذكر فيه سبط بن الجوزي هذا الخبر فقال: "داود بنُ علي ابن عبد الله بن عباس عمُّ السفَّاح، من الطبقة الرابعة من أهل المدينة، وأُمُّه أمُّ ولد، بربريةٌ اسمُها لُبابة، ولَّاه أبو العباس مكة والمدينة، وحجَّ بالناس سنة اثنتين وثلاثين، وهي أول حجةٍ حجَّها ولدُ العباس، ثم صار إلى المدينة، فأقام بها أشهرًا، ثم ماتَ بالمدينة في شهر ربيع الأول –واستخلَفَ على المدينة ابنَه موسى، فلما بلغ السفَّاحَ ولَّى زيادًا الحارثيّ، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة، وقيل: خمسًا وخمسين سنة.

روى عن أبيه، وروى عنه محمد بن أعبد الرحمن بن، أبي ليلى وغيره، وولد سنة ثمان وسبعين، وليَ إمرةَ الكوفة قبل الحجاز وسمع سالم بن أبي حَفصة وهو يطوفُ بالبيت ويقول لبيكَ يا مُهلكَ بني أُميَّة، فأعطاه ألفَ دينار.

قدم داودُ دمشق غيرَ مرة، وكان بها لما وصل الخبرُ بوفاة هشام بن عبد الملك، وكتب إلى أخيه محمد بذلك، وكان بدمشق حين ابتدأ أهلُ المزة في التدبير على الوليد بن يزيد، وعوضوا عليه أن يُبايع ليزيد بن الوليد فأبى. وكان جوادًا، سمحًا، شجاعًا، فصيحًا، خطيبًا، شاعرًا، ورثاه إبراهيم بنُ هَرْمة فقال: [من المسرح]

أَرْوَعُ لا يُخلِفُ العِداتِ ولا ... تمنعُه من سؤاله العِلَلُ
لكنه سابغٌ عطيتَه ... يدركُ منه السُّؤَّال ما سألوا
لا عاجزٌ عازب مروءته ... ولا ضعيفٌ في رأيه زللُ
يحمدُه الجارُ والمباعدُ والـ ... أرحامُ تُثني بحسنِ ما يصلُ
حَلَّ من المجد والمكارم في ... خيرِ محلٍّ يحلُّه رجل

توفي داوود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي: أبو سليمان، عم السفاح والمنصور قال يعقوب بْن سفيان: توفي سنة ثلاث وثلاثين ومئة، وهو وال عَلَى المدينة، ليلة هلال ربيع الأول. وَقَال مُحَمَّد بْن سعد: مات سنة ثلاث وثلاثين ومئة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة.

الخوارزمي

نشأته وحياته:

هو أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي (303-383هـ)، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم، ثم فارقها وهو فتي السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء. ولقي سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب: فورد بخارى ونيسابور وسجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان، فأكرم مثواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز.

فنجحت سفرته وربحت تجارته، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى مني في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذاني ومناظرته. فانخذل انخذالاً شديداً، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته، وخمدت شهرته، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامة سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة.

منزلته في الأدب والكتابة:

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة، وشهر بذلك حتى قيل: إنه قصد الصاحب بن عباد بأرجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال: إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول. فقال الوزير قل له: قد ألزمت نفسي ألا يدخل على إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب فقال أبو بكر للحاجب: أرجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال: هذا أبو بكر الخوارزمي.

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب عالماً بأشعار العرب وأخبارها، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب. وهو في النشر من طبقة ابن العميد. وكثير من الناس يفضله على الصاحب. ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق، ولا يرجع إلى سليقته. أما شعره فبين الرديء والجيد.

مختارات من نثره:

من فصوله المختارة قوله: الرجال حصون يبنيها الإحسان ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البرّ واليُسر، ويمحقها الجفاء والكبر. وإنه لا مال إلا برجال، ولا صلح إلا بعد قتال. والجبان مقتول بالخوف. قبل أن يُقتل بالسيف والشجاع حي وإن خانه العمر، وحاضر وإن غيبه القبر. ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب.

وقال: أكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه. وأكرم من النبت الزكي من زرعه، وأكرم من الكريم من اصطنعه. لا صيد أعظم من إنسان، ولا شَبكة أَصْيَدُ من إنسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته، وبين من اقتنص إنسياً بمقالته!

ومن أجود شعره:

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى ... دمعان في الأجفان يزدحمان
ما أنصفتني الحادثات، رميتني ... بمودعين وليس لي قلبان

وقوله:

قلت للعين حين شامت جمالاً ... في وجوه كواذب الإيماض
لا يَغُرّنك هذه الأوجه الغر ... (م) فيا رُبَّ حية في رياض

وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال:

ما لي رأيت بني العباس قد ... فتحوا الكُنى الألقاب أبوابا؟
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ... ما كان يرضى به للقصر بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا ... هذا فأنفق في الأقوام القابا

وقال في الحكم:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقال يرثي ركن الدولة:

ألست ترى السيف كيف انثلم ... وركن الخلافة كيف انهدم؟
طوى الحسن بن بُوَيه الردى ... أيدري الردى أي جيش هزم

فصيح اللسان بديع البيان ... رفيع السنان سريع القلم
إذ تم شيء بدا نقصه ... توقع زوالا إذ قِيلَ تم

المحاضرة الحادية عشرة

المحاضرة: الحادية عشرة (11)

الأدب المملوكي، أغراضه وفنونه وتطوره

تاريخ المماليك:

ينسب هذا العصر إلى المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام وجزءا كبيرا من الجزيرة العربية لحقبة طويلة من الزمن، بدأت مع انتهاء الدولة الأيوبية في مصر بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (647هـ)، ثم بمقتل ولده توران شاه بعده ببضعة أشهر على أيدي هؤلاء المماليك، وتنتهي تلك الفترة بسقوط دولتهم على يد العثمانيين.

والمماليك رقيق يؤسرون في الحروب ويباعون في أسواق النخاسة، ويستعملهم أصحابهم في الخدمة أو التجارة، ثم بعد ذلك في الحروب وتوطيد الملك. وقد بدأ إدخال عنصر المماليك في الدولة الإسلامية كجنود مع بداية الدولة العباسية؛ حيث أكثر هارون الرشيد ومن بعده من أولاده –خاصة المعتصم– من استقدامهم وشرائهم وتعليمهم أمور الإدارة والقتال؛ ليعتمدوا عليهم في تثبيت سلطانهم، خاصة بعد أن ضاقوا ذرعا بالفرس الذين نشأت الدولة العباسية على أكتافهم، فقصدوا الاعتماد على المماليك الأتراك الذين يأتون من بلاد ما وراء النهر.

ولكن ما لبث المماليك أن تحولوا من عبيد إلى سادة، فبمجرد قضائهم على الفرس دانت لهم الدولة العباسية، واستولوا على أجهزة الدولة ومواردها كافة، وامتطوا صهوة التغلب عليها، وصرفوا أحكامها طوع أغراضهم، حتى إنه شاع عند المؤرخين تسمية تلك الفترة بعصر نفوذ الأتراك، وهي التي تبدأ من سنة (232هـ) إلى (334هـ). ؛ بل إن بعضهم استقل بالحكم عن الدولة العباسية نفسها، كما فعل أحمد بن طولون المملوكي سنة (254هـ) حين تولى أمور مصر نيابة عن القائد التركي بقبق، فسولت له نفسه الاستقلال بمصر، معتمدا على أربعة وعشرين ألفا من المماليك الأتراك والديالمة.

تمهيد:

شجَّعت الحياةُ العِلميَّةُ المُزدَهِرةُ الشُّعَراءَ على نَظْمِ الشِّعْرِ وكتابتِه، بَيْدَ أنَّ الصِّفةَ التي كانت تغلِبُ على شِعرِهم هي الاهتمامُ بالمحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ والمعنَويَّةِ على حسابِ البيانِ والمعنى، ولم يقتَصِرْ هذا على الشِّعْرِ فحَسْبُ، بل تعدَّاه إلى النَّثرِ كذلك كما سيأتي. وقد وصَف بعضُ الأُدَباءِ العَصرَ المملوكيَّ بالضَّعفِ وقلَّةِ النِّتاجِ الأدَبيِّ، والسَّبَبُ في ذلك ضَياعُ أكثرِ دواوينِ الشُّعَراءِ وأخبارِهم، وإلَّا فالمُتاحُ منه كفيلٌ بالرَّدِّ على تلك الدَّعاوى.

وقد وصَف شُعَراءُ هذا العَصرِ بيئاتِهم ومظاهِرَها الطَّبيعيَّةَ، وقَيَّدوا في أشعارِهم أحداثَ عَصرِهم، وكان للحُروبِ الصَّليبيَّةِ والتَّتَريَّةِ أثَرٌ بالغٌ في إذكاءِ شِعرِ الحماسةِ؛ فقد وقف الشُّعَراءُ مجاهِدين بسيوفِهم وأشعارِهم، وكان للأدَبِ شِعرًا ونَثرًا دَورٌ بارزٌ في بَثِّ الحَمِيَّةِ، وتشجيعِ المجاهِدين، وأبيَنُ دليلٍ على هذا أنَّ صلاحَ الدِّينِ كان دائمًا ما يقولُ في ملأٍ من النَّاسِ: (لا تظنُّوا أنِّي ملَكتُ البلادَ بسيوفِكم، بل بقَلَمِ الفاضِلِ!).

وقد وَصَف الشُّعَراءُ والكُتَّابُ تلك المعارِكَ في أعمالِهم الأدبيَّةِ وصفًا دقيقًا؛ فهي تُعَدُّ سِجِلًّا من السِّجِلَّاتِ التَّاريخيَّةِ التي تَنقُلُ لنا صورةَ هذه الحِقبةِ الزَّمنيَّةِ. فأصبَح الشِّعْرُ حينَئذٍ مرآةً مجلوَّةً لهذا العَصرِ، تمثِّلُ ما فيه من أحداثٍ بشَفافيةٍ مُطلَقةٍ

الأنماط الشعرية في العصر المملوكي وخصائصها

تنقسم موضوعات الشعر في العصر المملوكي إلى ما يأتي:

المدح:

المَدْحُ من الأغراضِ التي لا تنقَرِضُ مع مرورِ الزَّمانِ؛ فحاجةُ الإنسانِ إلى شُكرِ المتفَضِّلِ عليه فطريَّةٌ فيه، خاصَّةً عِندَ الشُّعَراءِ ومُرهَفي الحِسِّ، لا سِيَّما إذا كان ذلك الممدوحُ ممَّن استحقَّ المَدْحَ، وكان فضلُه ظاهرًا على الخَلقِ.

وقد اكتَسَب المماليكُ محبَّةَ الشَّعبِ وإجلالَه؛ لردِّهم خَطَرَ التَّتارِ ذلك العَدوِّ الذي قضى على الخلافةِ العبَّاسيَّةِ في بغدادَ، وشتَّت شَمْلَ المُسلِمين، وقَهَر الإماراتِ الإسلاميَّةَ وأذلَّه؛ ولهذا كان من أصدَقِ المَدْحِ ما وُجِّه للسُّلطانِ المُظَفَّرِ قُطُز حينَ عاد من عينِ جالوتَ مُنتَصِرًا على التَّتارِ؛ فمنه قولُ بعضِ شُعَراءِ دِمَشقَ: الخفيف

هلك الكُفرُ في الشَّآمِ جميعًا ... واستجَدَّ الإسلامُ بَعدَ دُحوضِهْ
بالمليكِ المُظَفَّرِ المَلكِ الأر ... وَعِ سَيفِ الإسلامِ عِندَ نُهوضِهْ
مَلِكٌ جاءنا بعَزمٍ وحَزمٍ ... فاعتزَزْنا بسُمْرِه وبِبِيضِهْ
أوجبَ اللهُ شُكْرَ ذاك علينا ... دائمًا مِثلَ واجِباتِ فُروضِهْ

<u>شعر الجهاد:</u> تجلّت في مُحاربة الغزو المغولي، وقد كان هذا الغزو مُدمّر لكلّ أرجاء الدولة الإسلامية الذي أسقط الدولة العباسية سنة 656هـ، وقد تميّز شعر الجهاد في العصر المملوكي بعدّة خصائص هي كالآتي: التأثُّر بشعر الحماسة في العصور الإسلامية السابقة، ولا سيما شعر الحرب في العصر العباسي، مُتمثلًا في شعر أبي تمام في حروب العباسيين مع الروم، وشعر أبي الطيب المتنبي الذي نظمه في حروب سيف الدولة الحمداني مع الروم كذلك. بروز النزعة الإسلامية المتمثلة بالتأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأحداث التاريخ الإسلامي وأعلامه البارزين.

توجُّه شعراء الجهاد إلى البديع، فقد ضمنوا أشعرهم ألوانًا من المحسنات البديعية التي لاقت قبولًا واستحسانًا من الذوق العام، وقد كانت سمة عامة في شعر ذلك العصر، وإن كانت النزعة البديعية في شعر الجهاد أقل ظهورًا من بقية الألوان الشعرية. يُمكن التمثيل على شعر الجهاد بالأبيات الآتية التي قيلت في مدح الظاهر بيبرس:

سر حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مراك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته ... يا ركنه، عند الأعادي ثار
لما تراقصت الرؤوس وحُركت ... من مُطربات قسيِّك الأوتار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى ... بحرًا سواك تقله الأنهار

الرثاء:

الرِّثاءُ أصدَقُ الأغراضِ الشِّعْريَّةِ، وأكثَرُها ارتباطًا بالعواطِفِ الإنسانيَّةِ؛ إذ لا يَطمَعُ الرَّاثي في نَيْلِ شيءٍ من الميِّتِ، وإنَّما دفَعه إلى ذلك محبَّتُه وتقديرُه، وذلك ثابتٌ في جميعِ العُصورِ ومختَلِفِ البُلدانِ.

وقد استشرى الرِّثاءُ في عَصرِ المماليكِ، وألهبَتِ الحُروبُ وما يُفقَدُ فيها مشاعرَ الأُدَباءِ في رثاءِ ذوي الهيئاتِ من السَّلاطينِ والقادةِ والأمَراءِ، فضلًا عن مراثي العُلَماءِ والفُقَهاءِ والقُضاةِ وغَيرِهم، بَلْهَ المراثيَ التي يَرثي فيها الشَّاعرُ أخاه أو ابنَه أو ولدَه أو زوجَه أو صديقَه، ونحوَ ذلك. فمِن رثاءِ السَّلاطينِ قولُ ابنِ نُباتةَ المِصريِّ في رثاءِ المُؤَيَّدِ والأفضَلِ:

يا جَفْنُ أمزِجْ أدمُعي بدِمائي ... وأشهِدْ بها لمُلوكِنا الشُّهَداءِ
لهَفي على مَلِكَينِ جادَ عليهما ... في كلِّ أرضٍ أفْقُ كلِّ سماءِ
لَهَفي لإسماعيلَ قبلَ محمَّدٍ ... لم ألقَ يومَ رَدَاهما لفِداءِ
أَمَّا ذبيحا مُقلَتي ومَدامعي ... لهما فما وَفَيا بفَيضِ دِماءِ

لم يتغَيَّرْ شِعرُ الغَزَلِ عمَّا كان عليه في العُصورِ السَّابقةِ؛ فما زال الشَّاعِرُ يُعبِّرُ عن هُيامِه لمحبوبتِه، ويبتَدِئُ بعضُهم القصائدَ بالمقَدِّمةِ الغَزَليَّةِ على نَهْجِ القُدَماءِ، بل منهم من غَلَب ذلك الغَرَضُ على شِعرِه. وتنوَّع غزلُهم إلى عفيفٍ وفاحشٍ. ومن الغَزَلِ العفيفِ قولُ إبراهيمَ الإسْعِرْديِّ:

كُنْ كيف شِئتَ فإنَّني بك مُغرَمُ ... راضٍ بما فَعَل الهوى المتحَكِّمُ
ولئِنْ كَتمتُ عن الوُشاةِ صَبابتي ... بك فالجوانِحُ بالهوى تتكَلَّمُ
أشتاقُ مَن أهوى وأعجَبُ أنَّني ... أشتاقُ مَن هو في الفُؤادِ مُخَيِّمُ
يا مَن يَصُدُّ عن المُحِبِّ تَدَلُّلًا ... وإذا بكى وَجْدًا غدَا يتبسَّمُ

بدأت أيَّامُ دولةِ المماليكِ بالانتصارِ على الصَّليبيِّينَ بقيادةِ لُويسَ التَّاسِعِ في المنصورةِ؛ تلك الموقِعةِ التي أدارها المماليكُ تحتَ قيادةِ شَجَرةِ الدُّرِّ حينَ أخْفَت عن الجيشِ وفاةَ الصَّالحِ أيُّوبَ، ثمَّ لم تلبَثِ الأيامُ أن ترقَّبتْ مصرُ والشَّامُ وصولَ التَّتارِ، فكان على تلك الدَّولةِ التَّصَدِّي لذلك العَدُوِّ

الذي يُهدِّدُ أمنَها، وقيَّضَ اللهُ تعالى للمماليكِ في عَينِ جالوتَ نَصرًا مؤزَّرًا على التَّتارِ، أسعد المُسلِمين جميعًا في كُلِّ أقطارِ الأرضِ، وألهَب مشاعِرَ الأُدَباءِ للفَخرِ بما أحرَزه المُسلِمون على التَّتارِ، إلَّا أنَّ إمبراطوريَّةَ التَّتارِ لم تندَثِرْ حينَئذٍ، بل واصَلَت هُجومَها على ديارِ الإسلامِ، وفي كلِّ مرَّةٍ يتصدَّى لها أُمَراءُ المماليكِ، بما أزهَرَ شِعرَ الحماسةِ وألهَبَ قرائِحَ الشُّعَراءِ فيه. قال الشَّيخُ شِهابُ الدِّينِ محمودٌ في موقِعةِ عينِ جالوتَ:

كذا فلْتَكُنْ في اللهِ تمضي العزائمُ ... وإلَّا فلا تجفو الجُفون الصَّوارمُ
عزائمُ حاذَتْها الرِّياحُ فأصبَحَت ... مُخلَّفةً تبكي عليها الغمائِمُ
سَرَتْ من حِمَى مِصرَ إلى الرُّومِ فاحتوت ... عليه وسُورَاه الظُّبَا واللَّهاذِمُ

أخَذ الهِجاءُ في العَصرِ المملوكيِّ منحًى جديدًا؛ حيثُ لم يَعُدِ الهِجاءُ متعَلِّقًا بالقبائِلِ والأنسابِ؛ إذ كان المماليكُ من أجناسٍ مختَلِفةٍ ولا يُعرَفُ لهم نَسَبٌ، كما أنَّ الهِجاءَ امتَزَج برُوحِ الدُّعابةِ والهَزْلِ وقَصْدِ الإضحاكِ في الغالِبِ، فهذا أبو الحُسَينِ الجزَّارُ يهجو امرأةَ أبيه، فيقولُ:

تزَوَّجَ الشَّيخُ أبي شيخةً ... ليس لها عَقلٌ ولا ذِهْنُ
كأنَّها في فَرشِها رِمَّةٌ ... وشَعْرُها مِن حَولِها قُطْنُ
وقائِلٌ قال لي كم سِنُّها ... فقُلتُ ما في فَمِها سِنُّ

<u>الشعر الاجتماعي:</u> انقسم الشعر الاجتماعي لعدّة أقسام أهمها ما يأتي: الشكوى والمعاناة. النقد الاجتماعي. المظاهر الحضارية والثقافية. لقد تميّز الشعر الاجتماعي بعدّة خصائص منها ما يأتي: اتخاذ الشعراء نمط المقطوعات الشعرية القصيرة في التعبير عنه. ميوله للغة السهلة الميسورة. شعبية الأسلوب التي تلامس الذوق العام. خلوّه من التعقيد في الصور الشعرية، فقد كانت صورًا شعرية بسيطة لا تميل إلى التعقيد. يُمكن التمثيل على الشعر الاجتماعي بالأبيات الآتية:

لي جُبة فنيت مما أنشيها ... وما أخيطها إلا بأشراس ورثّ شاشي
حتى ظن مبصره أن العنا ... كب قد صُبت على راسي
ولي عيال بهم قد عيل مصطبري ... وصرت للهم فيهم مثل بُرجاس
يسعون حولي كالجرذان من سغب ... مقرضين بأنياب وأضراس

شعر المدائح النبوية تطوّر شعر المدائح النبوية عبر الزمن كثيرًا وصولًا إلى العصر المملوكي، فقد ظهر سابقًا في حياة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، إلّا أنّها أصبحت ظاهرة تستدعي الانتباه في العصر المملوكي، وقد يُعزى السبب في هذا إلى تعمّق الشعور الديني عند الناس نتيجة الغزو المُتتالي لبلاد المسلمين والشعور العام بالتقصير في حق الرسول عليه الصلاة والسلام واليأس من القدرة على تحصيل التغيير المطلوب.

تميّز شعر المدائح النبوية بعدة خصائص منها ما يأتي: الحديث عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وشمائله الكريمة. اتخاذه مثلًا وأسوة حسنة في اشعارهم. ذكر بعض الوصايا التي حث عليها الرسول الكريم. إبراز كم الشوق والحنين لقبر الرسول عليه الصلاة والسلام. الحديث عن الرغبة في الاعتمار والحج وزيارة الأماكن المقدسة. ويُمكن التمثيل على شعر المدائح النبوية بالأبيات الآتية:

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم ... ما بين مضطرب منه ومنسجم

شعر التصوف نشأ شعر التصوف في ظل الإسلام، واستمدّ أصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حيث مال المُتصوفون إلى الورع والزهد، والحديث عن الفرائض الدينية وصفاء القلب وصفات الكمال الروحي لدى الصوفي، وقد تعدّدت موضوعات شعر التصوف كثيرًا منها: شعر الزهد، شعر الحب الإلهي، الحنين والتشوق إلى الحجاز، الاستغاثة والمُناجاة. تميّز شعر التصوف بعدّة خصائص وهي كالآتي:

1/ استخدام الرمز حيث لجأ شعراء التصوف إلى استخدام الرمز في أشعارهم، وقد كانت ظاهرة جلية عندهم، فقد مالوا لاستخدام ألفاظ الشعر الخمري مثلًا للتعبير عن معانٍ روحية معينة فوراء كلّ كلمة أو رمز دلالة مُعينة.

2/ المصطلحات الصوفية حيث استخدم شعراء التصوف مُصطلحات خاصة بهم عبّروا بها عن عالمهم وهي مصطلحات غريبة عن غير المُتصوفة.

3/ الوحدة الموضوعية حيث اقتصر الشعر الصوفي على التعبير عن التجربة الصوفية فقط.

4/ المصطلحات الدينية حيث تأثر المُتصوفة بمُصطلحات القرآن والسنة النبوية كثيرًا. طول القصيدة حيث كانت مُعظم قصائدهم بالغة الطول. يُمكن التمثيل على شعر التصوف بالأبيات الآتية:

يا صاحب القبر المقيم بيثرب ... يا منتهى أملي وغاية مطلبي
يا من به في النائبات توسلي ... وإليه من كل الحوادث مهربي
إن كان رؤيتك الرفيعة في العلا ... منصوبة فالفعل فعل تعجب
الحجب ترفع والجهات أنيسة ... والمجتبي يغشاه نور المجتبى

التجديد في الشعر المملوكي:

اهتمَّ شُعَراءُ العَصرِ المملوكيِّ بالتَّجديدِ في أشكالِ القَصيدةِ العربيَّةِ وأغراضِها، وتنمَّقوا في ألفاظِها ومُحَسِّناتها، ولعلَّ ذلك ما حدا ببعضِ الباحثين إلى وَصْمِ الشِّعْرِ المملوكيِّ بالتَّخلُّفِ والجُمودِ، والاهتِمامِ بالمظهَرِ على حِسابِ الجوهَرِ. وهذا غُلُوٌّ في النَّقدِ؛ فإنَّ الشُّعَراءَ وإن أكثَروا من الاهتمامِ بتلك الفُنونِ التَّجديديَّةِ، إلَّا أنَّه لم يكُنْ –في الغالِبِ الأكثَرِ– على حسابِ المعنى والصُّورةِ، وفي شواهِدِ الأغراضِ التي سِيقتْ دليلٌ على ذلك. والتَّجديدُ الموجودُ في شِعرِ شُعَراءِ الدَّولةِ المملوكيَّةِ ليس اختراعًا سَبَقوا إليه، وإنَّما عُرِفَت تلك الصُّوَرُ قَبْلَهم، فاعتَمَدوها ونسَجوا على مِنوالها، وابتَكَروا صُوَرًا أخرى لم يُقرَضْ مِثْلُها.

التجديد في الأغراض الشعرية:

لم يقتَصِرْ شُعَراءُ العَصرِ المملوكيِّ على الأغراضِ الشِّعْريَّةِ المعروفةِ، بل زادوا عليها أغراضًا أخرى؛ منها:

1/ الإلغازُ:

يَعمِدُ الشَّاعِرُ إلى نَظْمِ أبياتٍ تتضَمَّنُ لُغزًا للنَّاسِ، من بابِ التَّسَلِّي وإعمالِ العَقلِ، وقد اهتمَّ الشُّعَراءُ بمِثلِ هذا الغَرَضِ حتَّى أفردوا له أبوابًا في دواوينِهم، مِثلُ صَفِيِّ الدِّينِ الحِلِّيِّ، وابنِ عُنَينٍ، والشَّرَفِ الأنصاريِّ، وابنِ السَّاعاتيِّ، وغيرِهم. ومن أمثلةِ ذلك قولُ ابنِ عُنينٍ في العَقرَبِ:

وما حَيوانٌ يتَّقي النَّاسُ شرَّه ... على أنَّه واهي القُوى واهِنُ البَطْشِ
إذا ضعَّفوا نِصفَ اسمِه صار طائِرًا ... وإن ضَعَّفوا باقيه صار من الوَحْشِ

2- الفُكاهةُ والإضحاكُ:

كقَولِ ابنِ سُودونَ المعروفِ بذلك الغَرَضِ من الشِّعْرِ:

إذا ما الفتى في النَّاسِ بالعَقلِ قد سما ... تيقَّنَ أنَّ الأرضَ مِن فَوقِها السَّمَا
وأنَّ السَّما من تحتِها الأرضُ لم تَزَلْ ... وبَيْنَهما أشياءُ إنْ ظهَرَتْ تُرى
وإنِّي سأُبدي بعضَ ما قد عَلِمتُه ... ليُعلَمَ أنِّي مِن ذوي العِلمِ والحِجَى
فمِن ذاك أنَّ النَّاسَ مِن نَسلِ آدمٍ ... ومنهم أبي سُودونَ أيضًا ولو مضى

التجديد في شكل القصيدة وهيكلها:

استمرَّ شُعَراءُ المماليكِ على مِنوالِ أسلافِهم في تطويرِ شَكلِ القصيدةِ وهَيكَلِها؛ فطوَّعوا بعضَ الأشكالِ القديمةِ للقصيدةِ، كالموشَّحاتِ، وابتكروا أنواعًا أُخرى ساعدهم عليها التَّنسيقُ الهندَسيُّ والتَّفوُّقُ العَقليُّ والقُدرةُ اللُّغويَّةُ على الصَّياغةِ.

فعلى صعيدِ المُوَشَّحاتِ استعمَلَ شُعَراءُ المماليكِ المُوَشَّحَ على صورتِه المألوفةِ عِندَ الأندلُسيِّينَ والعبَّاسيِّينَ قَبلَهم، فهذا صَفيُّ الدِّينِ الحِلِّيُّ يقولُ:

شَربنا سُلافًا بلا آنيَهْ ... فلا تحسَبوا عينَها آنيَهْ
لنا نَشوةٌ في الدُّجى ناشِيَهْ ... بإدراكِها أصلحَتْ شانِيَهْ

ثمَّ طوَّروا من استعمالِ الموشَحَّاتِ، فاتَّخذوا منه صورةً عاميَّةً، تسمَّى بالزَّجَلِ، يعتَمِدُ على الموشَّحِ في نظامِه، وإن خالفَه في قواعِدِ تركيبِه، انتَقَل إلى المَشرِقِ من المغرِبِ، فأَلِفَه النَّاسُ لاعتمادِه العامِّيَّةَ، وقُربِه من اللُّغةِ الفُصحى، وقواعِدِ الشِّعْرِ المعروفِ. فمنه قولُ هارونَ بنِ موسى بنِ محمَّدٍ:

بَدَويَّهْ في بَبويَهْ ساكنه ... صيَّرت عندي المحبَّة كامنَهْ

اسمُها سِتُّ العَرَبْ ... هيَّجَتْ عندي الطَّرَبْ

وطوَّروا منها كذلك البَلاليقَ أو البليقَ ومُفردُها بليقةٌ، وهي: منظومةٌ زَجليَّةٌ، إلَّا أنَّها أخَفُّ وزنًا ولغةً عن الموشَّحاتِ والزَّجَلِ؛ ولهذا شاع استعمالُها بَيْنَ النَّاسِ، ونَظَموها في مناسَباتٍ متعَدِّدةٍ. ومن ذلك قَولُ سِراجِ الدِّينِ عُمَرَ بنِ مولاهم:

من قال أنا جُنْدي خَلَق

فقد صَدَق

عندي قَبا من عَهدِ نُوح

على الفُتوح

لو صادَفوا شمسَ السُّطوح

كان احتَرَق

ومنه كذلك: المَواليا، وهو نوعٌ من الفُنونِ الشِّعْريَّةِ الشَّعبيَّةِ، يلتَزِمُ الشَّاعِرُ فيه وزنًا واحدًا، على عادتِه في القصيدةِ العَربيَّةِ، إلَّا أنَّه يلتزِمُ فيه أشكالًا خاصَّةً في القافيةِ. وهو فنٌّ عراقيُّ الأصلِ وَفَد على مِصرَ واشتَهَر فيها، ويَغلِبُ عليه اللَّفظُ العامِّيُّ غيرُ المُعَرَّبِ، لكِنْ يحلو لبَعضِ الموالينَ استخدامُ بعضِ ألفاظٍ مُعَرَّبةٍ في حَشوِ مواويلِهم تملُّحًا.

وأمَّا بالنِّسبةِ للتَّجديدِ في هيكَلِ القصيدةِ وشَكلِها المعروفِ، فقد استحدَثَ شُعَراءُ العَصرِ المملوكيِّ بعضَ فنونِ البديعِ في تنميقِ قَصائِدِهم، وإثباتِ قُدراتِهم اللُّغَويَّةِ والشِّعْريَّةِ، فابتكَروا صُوَرًا؛ منها:

الطَّردُ والعَكسُ: وهو أن يَنظِمَ الشَّاعِرُ قصيدتَه، فتُقرَأَ على وُجوهٍ متعَدِّدةٍ، دونَ أن يكونَ وراءَ ذلك معانٍ جديدةٌ في الغالِبِ. ومن ذلك أبياتٌ لصَفِيِّ الدِّينِ الحِلِّيِّ، وهو أوَّلُ مَن برع في هذا اللَّونِ من الشِّعْرِ:

ليتَ شِعْري ... لك عِلمٌ
مِن سِقامي ... يا شِفائي
لك عِلمٌ ... مِن زَفيري
ونُحولي ... وضَنائي
مِن سِقامي ... ونُحولي
داوِني إذْ ... أنت دائي
يا شِفائي ... وضَنائي
أنت دائي ... ودوائي

فهذه الأبياتُ تُقرأُ من أعلى لأسفَلَ، ومن اليَمينِ إلى اليَسارِ، ولا يتغَيَّرُ منها شيءٌ. ومنها صِنفٌ يُقالُ له المُخَلَّعاتُ، وهو أن تُقرَأَ القصيدةُ كذلك من أعلى لأسفَلَ، ومن اليمينِ إلى اليَسارِ، لكِنْ مع تغايُرِ المعنى، بحيثُ يصلُحُ كلٌّ منها أن يكونَ قصيدةً بذاتِه، ومنها ما يُقرأُ من اليسارِ إلى اليَمينِ، كما يُقرأُ من اليمينِ إلى اليَسارِ من غيرِ فَرقٍ، ومنها ما يخالِفُ ذلك؛ فإذا قُرِئَ من الأعلى للأسفَلِ كان مَدحًا، وإذا قُرئ من اليَمينِ لليَسارِ كان هِجاءً، وغيرُ ذلك.

النثر المملوكي

النثر في عصر المماليك ازدهرت الحركة الأدبية في عصر المماليك ازدهارًا كبيرًا، وشهد حركةً علميةً واسعةً في شتى المجالات، إذ عُرف العصر المملوكي بعصر الموسوعات العلمية، وأسهم علماؤه في إثراء المكتبة العربية بالموسوعات التي أُلفت في مختلف العلوم والفنون، وساعد النتاج العلمي والأدبي الذي ألفوه على تعويض الخسارة التي لحقت بالأمة على يد المغول، وأصبحت موئل العلماء والأدباء الذين هربوا إليها من الشرق. فيديو قد يعجبك: أسباب ازدهار النثر في عصر المماليك ازدهر النثر في عصر المماليك بسبب مجموعة من العوامل، أبرزها فيما يأتي:

عناية سلاطين المماليك بأبناء جلدتهم من الناحية التربوية والثقافية والعلمية، وتنشئتهم تنشئة صارمة اعتمدت على التربية الدينية والتربية العسكرية. تشجيع سلاطين المماليك العلماء، وتقريبهم من مجالسهم ومشاورتهم في كثير من القضايا. إنشاء المدارس ورعاية سلاطين المماليك لطلبة العلم والعلماء، ومنحهم الهدايا والرواتب. رغبة المماليك في إعادة مجد الإسلام. حاجة المماليك إلى مآثر

يذكرون بها. ملامح ازدهار النثر الفني في عصر المماليك اعتنى المماليك بالحركة الأدبية في القاهرة والشام، ومن ملامح ازدهار النثر في عصر المماليك ما يأتي:

إنشاء المكتبات والخزانات التي تضم أنواعا مختلفة من المؤلفات. إنشاء وتأليف الموسوعات الجامعة. الاهتمام بجمع المخطوطات. إعادة كتابة الكتب التي أحرقت. إعادة عمل ديوان الإنشاء. النثر الفني في عصر المماليك يُقسم النثر الفني إلى قسمين، هما الآتي: الكتابة الديوانية الرسائل الديوانية تتضمن التوجيهات والتعليمات من السلاطين والحكام، يتولاها كتاب كبار في ديوان الإنشاء، وكان يُشترط على كاتب ديوان الإنشاء حسن الخط والتفقه في علوم الإسلام؛ ليُساعده على الاستشهاد بكلام الله تعالى والعفاف والإخلاص وكتمان السر وتقوى الله وصلاح النية، فاهتم سلاطين المماليك باختيار كتّاب الرسائل اختيارا حسنًا، فاختاروا أهل الفقه والأدب والعقل الراجح؛ لأنّهم عقول الأمة، وامتازت هذه الرسائل بالزخرفة اللفظية ممّا شوّه المعاني.

للرسائل الديوانية أشكال مختلفة منها الآتي: الرسائل الملوكية هي المكاتبات التي تُرسل على لسان السلطان إلى غيره من الملوك والسلاطين في أمر ما.

العهود والمبايعات العهد هو رسالة من خليفة أو سلطان إلى من اختاره لولاية منصبه من بعده لولاية العهد؛ كعهد الملك الناصر محمد بن قلاوون عن الحاكم بأمر الله أحمد السليماني، الذي كتبه القاضي القيسراني، أما المبايعة فهي رسالة ديوانية تُكتب للخليفة أو الملك عند قيامه أول مرة بأعباء منصبه إقرارًا له ورضًا عنه. التقاليد أمر تعيين إلى أحد موظفي الدولة لتسلم منصب أو وظيفة.

التواقيع أمر تعيين إلى أحد موظفي الدولة لوظيفة عادية. المراسيم ما يُكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلق بالولاية، وتتصدى لعلاج حالات اجتماعية. البشارة رسالة شائقة تُبشر بمجيء السلطان من رحلة أو غزو أو تبشر بانتصار للجيش أو ولادة مولود. الرسائل الإخوانية يتبادلها الأدباء ومن أشكالها المناظرات، وتضمنت الرسائل الإخوانية العتاب والشكوى وتبادل الآراء والتهنئة والتعزية والهجاء والذم والشكوى، وكانت تُركز على اللفظ على حساب سمو المعاني، واتسمت بالبساطة واستخدام عبارات المجاملة والتعظيم والمدح.

النثر العلمي في عصر المماليك أثمرت جهود العلماء عن حركة تأليف وتصنيف في فنون المعرفة كافة؛ كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم اللغة واللسانيات والتاريخ والطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية والرياضية وعلوم أخرى، مثل: الموسيقى والرؤيا وتفسير المنام وحل المترجم والألغاز والكيمياء والفلك والجغرافيا والهندسة والموسوعات، التي جمعت شتى أصناف المعارف والعلوم.

أبرز المؤلفات العلمية في عصر المماليك نشطت حركة التأليف في عصر المماليك، ورُفدت خزانة الأدب العربي بعشرات المؤلفات في شتى العلوم والمعارف، ومنها الآتي: ألفية ابن مالك مُؤلَف لخص فيه ابن مالك قواعد النحو العربي في 1000 بيت. القصيدة الشاطبية نظمها القاسم الشاطبي وعنوانها حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع للسبع المثاني. نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ويقع في 33 مجلدًا و4500 صفحة في الجغرافيا والإنسان وعلومه والحيوان والنبات والتاريخ من آدم وحتى عصره. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين بن فضل الله اليعمري وهو في 20 مجلداً. التذكرة الصفدية لصلاح الدين الصفدي ويقع في 30 مجلداً، جمع فيه نوادر الأشعار ولطائف الأدبيات نظمًا ونثرًا.

المحاضرة الثانية عشرة

المحاضرة: الثانية عشرة (12)

الأدب في بلاد المغرب العربي تاريخه وخصائصه

نشأة الأدب في المغرب العربي:

انتقل العرب إلى المغرب ونقلوا معهم حضارتهم ولغتهم كما نقلوا تقاليدهم الحياتية والأدبية، ولكن عمل الفتح الذي طالت مدّته، ونظرة المغاربة إلى العرب، في بدء الأمر، على انهم جماعة غزو واستثمار، وشيوع وقلق واضطراب الأمن... كل ذلك حال دون استفادة المغاربة المبكرة من حضارة العرب الفكرية والاجتماعية، ودون اشتراكهم المبكّر في نتاجهم العلميّ والأدبيّ، ولكن المدّ العربي أخذ من السيطرة والتوجيه، وفتحت المساجد أبوابها للعلم والتعليم، وراح أولو الأمر يعطفون على العلماء والأدباء ويشجّعون العلم والأدب، وراح الناس شيئا فشيئا يتذوقون التراث العربي، إلى ان تم التمازج وكان الوعي، وإذا البلاد عربية، وإذا هنالك أدب عربي ينشأ ويتطور على سنة الحياة، شعر ونثر كأروع الشعر وأبلغ النثر.

الشعر المغربي القديم:

تطوّره:

نقل العرب إلى المغرب لغتهم كما نقلوا تقاليدهم الأدبية وراحوا في تلك الديار الجديدة يواصلون الحركة الشعريّة التي غذاها المشرق عصرا بعد عصر، ولكنهم في بدء أمرهم شغلوا بالفتح، وإن انصرفوا إلى شيء من الشعر فعلى طريقة المشارقة، ثم كان عهد الازدهار ففتح الأمراء أبوابهم لرجال العلم والأدب، وأجزلوا لهم العطاء، فالتفّ حولهم الشعراء وراحوا يعالجون الموضوعات التقليديّة في شتى فروعها وتشعّباتها.

كما راحوا يماشون التيّارات الجديدة، متأثّرين، في هذه وتلك، بأدبي المشرق والأندلس، ومحتفظين على كل حال بشخصيتهم المغربيّة وما لها من مميزات، والذي جرى في الأندلس جرى

في المغرب، فقد تطلّع الشعراء أولا إلى المدينة وبغداد مستوحين المعاني والأساليب، حتى إذا اشتدّ اختلاط العر بالشعوب المغربية، وقام جيلٌ جديد يطمح إلى المنافسة والمكاثرة، راح الشعراء يستلهمون حياتهم وبيئتهم من غير أن يستقلوا تمام الاستقلال عن المؤثرات المشرقية.

وفي عهد الموحدين توافد المغرب عدد من الوشّاحين الأندلسيين، فكان للموشّح رواج عند الخاصة والعامة، وعالجه الشعراء وألحقوه بالزجل، واستنبطوا نوعاً آخر من الشعر ذكره ابن خلدون في المقدمة حين قال: "ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشّح، نظموا فيه بلغتهم الحضريّة أيضا، وسموه (عروض البلد).

وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعةً على طريقة الموشّح لم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلّا قليلا. فاستحسنه أهل فاس، وولعوا به، ونظموا على طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم."

<u>أغراض الشعر المغربي:</u>

دار الشعر العربي في المغرب حول المدح والرثاء، والفخر والهجاء، والغزل واللهو، والوصف والشكوى، وما إلى ذلك.

أما <u>المدح</u> فهو المدح المشرقي بطريقته التقليدية، وقوالبه الموروثة، وغلوّه التكسّبي، وأما الرثاء فهو دون رثاء المشارقة عمقا وحكمة وبُعد نظر، ولكنه يتجاوز الأشخاص إلى الممالك والمدن، وكثيرا ما وقف شعراء المغرب يبكون مدنهم إذا سقطت في حوزة العدوّ، أو حلّت بها مصيبة، إن صدورهم عامرة بالإخلاص لوطنهم، وقلوبهم شديدة التعلق بكل ذرة من ترابه.

فعندما سقطت صقلية في أيدي النورمان رثاها ابن حمديس بشعر حافل باللوعة، ولماّ خرّب الهلاليّون مدينة القيروان بكاها ابن شرف بكاءً مراً، وهكذا حفل الأدب المغربي <u>برثاء</u> البلدان المحبوبة، وانتقل به من المعاني الفردية إلى المعاني الجماعية، ومن الشعور الخاص إلى الشعور العام.

وأما <u>الفخر</u> فلم يخرج فيه شعراء المغرب عن الأساليب إلى في بعص الاقتصاد في التبجُّح، وأما الهجاء فقليل عندهم ولم ينصرف إليه الشعراء إلا في النادر، وأما <u>الغزل</u> فقد عالجوه في طريقة

جيرانهم الأندلسيين، إلا أنهم لم يبلغوا شأوهم في التّرف المعنوي واللفظي، ومن أشهر شعراء الغزل أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عمر الفهري السبتي المعروف بابن المحلَّى.

النثر المغربي القديم:

تطوره:

تطور النثر في المغرب العربي وفاقا للبيئة وأحوال الاجتماع والسياسة والثقافة، وكان في أول أمره وسيلة لنقل الفكرة في غير التواء ولا اعوجاج، يجري على سنن النثر المشرقي القديم، ثم انتقل، في عهد المرابطين والموحدين، إلى تقليد النثر العباسي في شتى ألوانه التنميقية وفي شتى مناحيه الأدبية.

فنونها وميزاتها:

أما فنون النثر المغربي فهي الخطابة، والترسل، والرحلات الجغرافية والتاريخ.

الخطابة:

تعددت دواعي الخطابة في المغرب العربي، ولا سيما في عصوره الأولى، يوم احتاج إليها القوّاد والرؤساء لبث الحماسة في صدور المحاربين، ولتدعيم فكرة سياسية، وحزبية، ومن أشهر الخطباء طارق بن زياد، والمهدي بن تومرت، وأبو حفص عم بن عبد الله الأغماتي، وأبو مدين الفاسي.

أما طارق بن زياد–وإن شك الكثيرون في نسبة الخطبة المشهورة إليه–فهو بطل الفتح الأندلسي، قيل إنه لما عبر البحر وقابله لذريق بجيشه الجرّار، خشي أن يتراجع عسكره، فألقى فيهم خطبته، وحضهم على القتال، بلهجة الحماسة والحزم والمسؤولية.

وأما المهدي بن تومرت فهو بطل الإصلاح المغربي، وله عظات وخُطب ووصايا امتازت بعمق الفكرة، وبعد النظر، وبلاغة الحجة والأسلوب حتى قال عنه ابن خلدون: "وانطوى هذا الإمام راجعا إلى المغرب بحرا متفجِّرا من العلم، وشهابا واريا من الدين".

وأما جعفر بن عمر فهو أغماتي الأصل، فاسي المنشأ والمنزل، جمع من الفنون الكتابة والخطابة والشعر، وهو في خطابته قصير العبارة، بادي الصنعة، حازم اللهجة. وأما بومدين الفاسي فهو خطيب التصوّف الهادئ اللهجة، الوادع السّرب، المسترسل الكلام في رصانة لا تخلو من بعض الزخرفة.

<u>الترسل:</u>

كان للترسل في المغرب شأن كبير، وكانت الكتابة، في عهدها الأول، محدود الأغراض، جلية المعاني، موجزة الأسلوب خالية من الزخرفة والتنميق، ولما اتّسعت آفاق العلم والرّقي وانتشرت الحضارة في شتّى مرافق الحياة، تعدّدت أغراض الكتابة وتنوّعت أساليبها فكان منها الكتابة الديوانية وموضوعها مكاتبة الأمراء والعمال، وما يتخللها من إعلام بالحال، وتقليد وظيفة، وصرف من الخدمة، وما إلى ذلك، والكتابة الأدبية وموضوعها متنوع، يدور حول الإخوانيات، والمناظرات، والتوقيعات، والمقامات، وما إلى ذلك.

من أشهر أرباب الترسل أبو جعفر بن عطية الذي كانت وزارته "زينا للوقت وكمالا للدولة"، والذي كان أسلوبه في الترسل أسلوب العصور المتأخرة من العهد العباسي، أسلوب الإطناب والزخرفة والتعقيد، وأبو عقيل بن عطية شقيق أبي جعفر، وهو رجل التأنق والزخرفة والأطناب، الذي اعتمد السجع اعتمادا، وثلّثَ فيه القوافي، وأدخله بعض ببعض في تركيب وتعقيب، وفي بلاغة ومتانة، وسليمان الموحدي أديب بني عبد المؤمن ونابغتهم.

<u>الرحلات الجغرافية والتاريخ:</u>

بلغ أهل المغرب في الرحلات الجغرافية غاية ما أمكن الوصول إليه في العصور القديمة، واشتهر فيهم الشريف الإدريسي، وابن بطوطة، كما اشتهر في التاريخ وفلسفته العلامة ابن خلدون.

<u>الأدب المغربي وأطواره:</u>

مر الأدب المغربي بثلاثة عهود متباينة، وهي: عهد التأسيس والتركيز، وعهد الازدهار، ثم عهد الانحدار والانهيار.

<u>أولا؛ عهد التأسيس والتركيز (89-375هـ=708-985م):</u>

ويشمل عهد الفتوح، وحكم الأدارسة والأغالبة، كان الأدب في مرحلته هاته أدبا مشرقيا دخل المغرب مع المشارفة الفاتحين أو المرافقين والتابعين للفتح، ثم كان ادبا مزيجا من أدب مشرقي وأدب أندلسي، أخذ يصطبغ بالصيغة المغربية، أي أدبا مخضرما. أما الشعر فظل في دائرته التقليدية سواء ذلك في موضوعاته أو أساليبه.

ولم يبق لنا من تلك الفترة إلا نتف قليلة لا تروي غليل الباحث. وأما النثر فقد رافق الفتوح واخذ يزدهر بازدهار مركز الثقافة والتعليم، وكانت دواعيه كثيرة ولاسيما الحروب والتثقيف الديني والتنظيم السياسي. كل ذلك كان حافزا على الخطابة والرسائل وما إلى ذلك. وكان النثر في هذه المرحلة نثرا مخضرما يجري في أكثره على أساليب المشارقة.

ليس لدينا من أدب هذه المرحلة ما يتيح لنا الإحاطة بمعطيات أدبائها ومفكريها، ولهذا كان همنا أن نورد بعض الأسماء التي تناقلتها أقلام المؤخرين، وأن نعرض في الشعر لبعض النتف والمقطوعات التي لم يأت عليها الدهر. وفي النثر لخطبة طارق بن زياد ولبعض المقطوعات الخطابية من تاريخ تلك الحقبة في المغرب.

ثانيا؛ عهد الازدهار (376-961هـ=986-1553م):

ويشمل عهد المرابطين والموحدين والمرينيين. وقد كان العهد الصنهاجي أو العهدي الزيري في قسمه الأول عهد ازدهار راجت فيه التجارة وشيدت الحصون والقلاع ونشطت الزراعة وازدهرت الحياة العلمية والأدبية وانتشرت المدارس وظهر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء منهم ابن رشيق القيرواني وابن شرف.

وفي عهد المرابطين اشتد التعصب الديني والمذهبي وكثر الإقبال على طلب العلم وجرى اتصال وثيق بين سكان الأندلس وسكان المغرب ظهر أثره في الهندسة المعمارية. أما في عهد الموحدين تم القضاء على الثورات والفتن فنعمت البلاد بحالة من الاستقرار الخيّر، ونشطت التجارة والصناعة وتأثر المجتمع المغربي بالأندلسي شديد التأثر، استدعى الأمراء إلى المغرب جيشا من العلماء والأدباء وشجعوا العلم والأدب وفي هذا العهد ظهر ابن طفيل وابن رشد والشريف الإدريسي وعدد آخر كبير من العلماء والأدباء الذين سنقف على بعضهم بعد قليل وهكذا كان العهد الموحدي عهد نضوج الثقافة العربية في المغرب.

أما في عهد الصنهاجيين بني زيري عمّ العدل في البلاد فازدهرت الحياة الاجتماعية وارتقت البلاد في شتى الميادين ولاسيما التجارية والصناعية منها. وانتشر التعليم في البلاد بواسطة الكتاتيب والزوايا وانتظم التعليم في جامع الزيتونة بتونس الذي أصبح فيما بعد من أكبر مراكز العلم والاشعاع في العالم العربي وانتشرت المدارس انتشارا عجيبا كما انتشرت المكتبات وساعد على ازدهار الحركة العلمية والفنية هجرة الأندلسيين إلى المغرب ومنهم العلماء والأدباء والشعراء وبرز في هذا العهد ابن خلدون.

أما في عهد المرينيين فمرّ بمرحلتين المرحلة الأولى مرحلة العظمة والقوة والمعرفة والفن وقد انتشرت فيه مراكز الاشعاع والتعليم. والمرحلة الثانية مرحلة الضعف والانحلال وقد احتل البرتغاليون شتى بلاد المغرب وتشتت القبائل وأصبحت البلاد ميدان للفتن والاضطرابات غير أن الأدب في هذا العصر نضج نضوجا شديدا وأصبح ذا شخصية مغربية تقف في وجه المشرق موقف منافسة لا تشعر فيه بعقدة نقص وأصبح نور المعرفة والعلم ينطلق من المغرب إلى شتى أقطار العالم

عهد الانحدار والانهيار (961-1318هـ=1553-1900م):

ويشمل عهد الوطاسيين والسعديين والعثمانيين والأوروبيين أما الاجتماع والثقافة والأدب في هذا العهد فهي كما يلي:

1- مد وجزر في الحياة الاجتماعية لهذا العهد، فتارة في ازدهار وتارة في انهيار، بسبب ضعف السياسة أو حسن سيرها وقد بدأ النفوذ الأجنبي يتغلغل شيئا فشيئا وبدأ طموح الدول الكبرى يتطلع إلى الشمال الإفريقي في شجع وطمع.

2- تقسيم الولاة للمغرب إلى أربعة أقطار زاد في إشعال نار الطمع عند الأوروبيين وسهل موضوع الاستيلاء على البلاد

3- تكالب الولاة على السلطة، وتنازعهم على الملك، وتحالفهم أحيانا مع من لا يريد الخير للمغرب العربي كل ذلك كان سبب اضطرابات وفتن مما سار بالبلاد نحو التدهور.

4- ولئن ظهر بعض الحكام الصالحين والقادرين الذين رفعوا العدالة الاجتماعية وحسنوا أوضاع البلاد فإن ظهورهم لم يغير نفسية الطامعين ولم يكن السد المنيع في وجوههم

5- هذا كله صار بالشمال الإفريقي إلى حكم الأوروبيين بعد حكم العثمانيين.

6- أما الثقافة والأدب فقد ظلت في أكثر الأحيان على طريق الازدهار وإن ضعف التعليم في العهد العثماني، وما زلنا نلتقي بعض الأدباء والشعراء الذين يشهد لهم بالتفوق والنبوغ

المحاضرة الثالثة عشر

المحاضرة: الثالثة عشر (13)

الأدب الأندلسي، أغراضه وفنونه وتطوره

تمهيد:

فتح المسلمون الأندلس عام 92 للهجرة، وظلت تحت راية الإسلام أكثر من ثمانية قرون حتى عام 898هـ، تاريخ خروج المسلمين منها. وتُعدُّ الأندلس جسرًا ثقافيًا بين الشرق والغرب، فعن طريقها تنسَّم الغرب النصراني نفحات الحضارة العربية الإسلامية. وهي حضارة حلقت بجناحين: جناح العقيدة وهي الدين الإسلامي، وجناح اللغة العربية. ومن ثَمَّ كان الأدب في الأندلس عربيًا في لغته وبلاغته وأساليبه. وقد امتزج كل ذلك بكثير من طبيعة البيئة الأندلسية التي نشأ في أحضانها.

أولا؛ الشعر:

يلفت النظر شيوع الشعر في المجتمع الأندلسي، إذ لم يكن الشعر وقفًا على الشعراء المحترفين وإنما شاركهم في ذلك الأمراء والوزراء والكتاب والفقهاء والفلاسفة والأطباء وأهل النحو واللغة وغيرهم. فالمجتمع الأندلسي بسبب تكوينه الثقافي القائم على علوم العربية وآدابها، ثم طبيعة الأندلس التي تستثير العواطف وتحرك الخيال، كل ذلك جعل المجتمع يتنفس الشعر طبعًا وسليقة وكأنما تحول معظم أهله إلى شعراء.

اتجاهات الشعر الأندلسي.

ينقسم الشعر في الأندلس إلى ثلاثة اتجاهات: **1-الاتجاه المحافظ**، ويهتم هذا الاتجاه بالموضوعات التقليدية ويتبع منهج القدماء في بناء القصيدة، وأسلوبه بدوي، وفي ألفاظه جزالة وعبارات لا تخلو من خشونة وحوشيّة، وأما بحوره فطويلة وقوافيه غنائية. هذا الاتجاه يحتذي نماذج المشرق وإن كان في واقع الأندلس في تلك الفترة، وهي فترة تأسيس الإمارة، ما يسوِّغ غلبة الموضوعات التقليدية وهي سمة الشعر المحافظ. فالفترة كانت فترة صراعات وحروب تتطلب شعرًا يعبِّر عن الفخر والحماسة. كما كان الحكام عربًا تهزهم أريحية المدح والكرم. أما الغزل فكان يعبّر عن الحب الصادق فلا مجال إلا لفارس عاشق أو عاشق فارس يُذكر بعنترة بن شداد.

ولعل أهل الأندلس كانوا يتمثلون عالم الآباء والأجداد، حيث الصحراء والكثبان والواحات، وهم في عالم الأندلس الذي يبعد عن ذلك العالم، وكأنهم يستلهمون العالم المثالي. وقد فطن ابن بسام لتقليد الأندلس للمشرق، فأطلق العبارة التي أصبحت مثلاً، وهي قوله: ,إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنمًا وتلوا ذلك كتابًا محكمًا·. وبالرغم من ذلك كان لهذا الاتجاه سماته الخاصة في الشعر الأندلسي، وقد جعلت تلك السمات لهذا الشعر ذاتية مستقلة، وطبعت الملامح الأولى للشعر الأندلسي وميزته عن الشعر المشرقي. ومن أشهر شعراء هذا الاتجاه: عبد الرحمن الداخل وأبو المخشى والحكم بن هشام وعباس بن ناصح وغيرهم من شعراء الفترة الباكرة. **2- الاتجاه المحدث**، وهو الاتجاه الذي حمل لواءه بالمشرق أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبوالعتاهية ومن إليهم من دعاة التجديد، حيث ثاروا على الاتجاه المحافظ وطرقوا موضوعات جديدة بأسلوب جديد، خالفوا فيه طريقة القدماء في بناء القصيدة.

عرف الأندلس هذا الاتجاه على يد عباس بن ناصح حيث نقله من المشرق. وتمثل الاتجاه المحدث في الأندلس باهتمامه بأغراض لم تكن قائمة بذاتها في القصيدة من قبل. فظهرت الخمريات والغزل الشاذ والمجون والزهد، كل ذلك في أسلوب قصصي لا يخلو من روح الدعابة والسخرية. أما صوره فتتألّف من عناصر حضرية في لغة يسيرة الألفاظ وإيقاع يميل إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة. وجد هذا الاتجاه صدى واسعًا في الأندلس، إذ إن حياة الأندلس انفتحت على لون من الترف ودعة العيش، فكثرت مجالس الموسيقى والغناء بفضل ما أدخله زرياب من ألحان وآلات، ثم بفضل مالقيه من الحكام من تشجيع وعناية. فتلقى الشعراء هذا الاتجاه بالإعجاب لأنه أصدق في التعبير عن واقعهم وعن حياتهم التي غمرها الترف ورقة العيش. ويعد الشاعر يحيى بن حكم الغزال من أشهر رواد الاتجاه المحدث.

3- **الاتجاه المحافظ الجديد**. ظهر هذا الاتجاه في المشرق بسبب تطرف الاتجاه المحدث ومن ثم هو محاولة لإعادة الشعر العربي إلى طبيعته وإلى موروثه دون جمود أو بداوة. عمد هذا الاتجاه إلى الإفادة من رقي العقل العربي بما بَلَغَتْه الثقافة العربية الإسلامية من نهضة واسعة في مجتمع توفرت له أسباب الحضارة. وكان هذا الاتجاه محافظًا في منهج بناء القصيدة ولغتها وموسيقاها، وكذلك في قيمها وأخلاقها وروحها، ولكنه مجدد في المضمون وفي معاني الشعر

وصوره، وكذلك في أسلوبه. ويمثل أبو تمام والبحتري والمتنبي دعائم هذا الاتجاه في المشرق. وقد عرفت الأندلس هذا الاتجاه على يد نفر من الأندلسيين رحلوا للمشرق وعادوا للأندلس بأشعار البحتري وأبي تمام. وكانت فترة الخلافة هي ذروة نضجه، إذ كان المجتمع الأندلسي في هذه الفترة قد تجاوز الانبهار بالمستحدثات الحضارية التي بهرت شعراء القرن الثاني، فعبروا عنها في لهو ومجون وتمرد. ولكن في القرن الثالث كان المجتمع الأندلسي أكثر استقرارًا وتعقلاً ومن ثم وجد الاتجاه المحافظ قبولاً وأصبح هو الصورة المثلى للشعر الفصيح متجاوزًا الاتجاهين القديم والمحدث. تأثرت أشعار الأندلس منذ القرن الثالث بهذا الاتجاه في المنهج والروح والأفكار واللغة والموسيقى والصياغة والأسلوب. وأضحى شعر أعلام المشارقة هو النموذج الذي يحتذى. ومن أعلام هذا الاتجاه في الأندلس ابن عبد ربه وابن هانئ والرمادي وغيرهم.

<u>أغراض الشعر الأندلسي:</u>

عالج شعراء الأندلس مختلف أغراض الشعر وإن تميزت بعض الأغراض باهتمام أكثر من غيرها. ويمثل الشعر خاصة أحد جوانب الحضارة العربية الأندلسية، فقد عبر عن قوالب تلك الحضارة وعن مضمونها، كما عبر عن طبيعة الصراعات السياسية والتغيّرات الاجتماعية في الأندلس. ومن أهم الأغراض التي عالجها الشعر الأندلسي **<u>الغزل</u>**، وأوضح سماته تلك الرقة في العواطف المعبّر عنها في رقة البيان. وكان للحياة الأندلسية دور إيجابي في طبيعة شعر الغزل، فهو غزل حسّي يقف عند حدود الوصف المادي مستعيرًا، أوصاف المحبوب من البيئة حوله. وبالرغم من ذلك فهناك من اتخذوا الغزل العفيف مذهبًا لهم، كابن فرج الجياني الذي يقول:

وطالعة الوصال صددت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت ... دياجي الليل سافرة القناع
فملّكت الهوى جمحات قلبي ... لأجري في العفاف على طباعي

ومن أهم سمات الغزل الأندلسي ارتباطه بمجالس اللهو والخمر وتعبيره عن تلك الحياة اللاهية. ومن ثم لم يسلم الغزل من ألفاظ نابية، خاصة في عصر ملوك الطوائف حين أسَفَّ في معانيه معبّرًا عن مستوى ماجن. كما كان الغزل الشاذ غرضًا شعريًا له رواده، وإن لم يكثروا منه، كأبي نواس في المشرق مثلاً. وبالمثل يبدو تأثير البيئة في الغزل بالفتيات النصرانيات وذكر الكنائس والأديرة والرهبان والصلبان وما إلى ذلك من معطيات البيئة الأندلسيّة.

وأجمل ما في الغزل الأندلسي بجانب لطف التعبير، أن الصادق منه شديد التأثير خاصة حين يبكي الشاعر ويحن في إيقاع غير متكلف. ويمثل ابن زيدون قمة هذا الاتجاه خاصة في قصائده إلى وَلادَة بنت المستكفي، ومن أجملها قوله في نونيّته:

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سُودًا وكانت بكم بيضًا لياليا

ومن أشهر شعراء الغزل في الأندلس ابن زيدون وابن سهل الإسرائيلي وابن شُهَيْدِ، وإن كان كل الشعراء قد أدلوا بدلوهم في شعر الغزل.

أما شعر **المدح** فكان موجهًا إلى الأمراء والخلفاء والحكام. ويتناول جانبين من حياتهم: أولهما الصفات التي يخلعها الشاعر على ممدوحه من شجاعة ووفاء وكرم، والجانب الثاني انتصارات الممدوح التي هي نصر وعزٌ للإسلام والمسلمين، ثم وصف لمعاركهم الحربية. ويتراوح أسلوب المدح بين الجزالة والسهولة، والفخامة والرقة، وفقًا لطبيعة المعاني المعبّر عنها. ولكنه بوجه عام يميل إلى التأنق في العبارة والصياغة. وقد تختلف طريقة بناء قصائد المدح بين شاعر وآخر. فبعضها كان ينهج نهج الأقدمين، فيبدأ بمقدمة طللية ونسيبٍ ووصف للرحلة ثم يتخلص إلى المدح، بينما نجد من الشعراء من يعمد إلى موضوعه مباشرة دون مقدمات. ويقدم صنف ثالث بين يدي ممدوحه شيئًا من الغزل أو وصف الطبيعة أو مجالس الخمر أو الشكوى والعتاب، وعقب ذلك ينتقل إلى المدح.

ومن أشهر شعراء الأندلس في هذا الغرض الشعري ابن حمديس وابن هانئ وابن زيدون وابن دراج القسطلي. ولا نجد من الشعراء المحترفين شاعرًا لم يعالج هذا الغرض. يقول ابن حمديس مادحًا الأمير أبا الحسن علي بن يحيى:

تُفشي يداك سرائر الأغماد ... لقطاف هام واختلاء هوادي
إلاّ على غزوٍ يبيد به العِدى ... لله من غزو له وجهاد
ما صونُ دين محمد من ضَيْمِه ... إلاّ بسيفك يوم كلِّ جلاد
وطلوع راياتٍ وقود جحافل ... وقراع أبطال وكرِّ جياد

ويقول ابن هانئ مادحًا إبراهيم بن جعفر:
لا أرى كابن جعفر بن عليّ ... ملكًا لابسًا جلالة مُلْك

مثلُ ماء الغمام يندي شبابًا ... وهو في حُلّتي تَوَقٍّ ونُسك
يطأ الأرض فالثرى لؤلؤ رط ... ب وماء الثرى مُجَاجة مسك

ويقول ابن زيدون للوليد بن جهور:

للجهوريِّ أبي الوليد خلائق ... كالروض أضحَكه الغمام الباكي
مَلِكٌ يسوس الدهرَ منه مهذبٌ ... تدبيره للمُلك خيرُ مِلاك
جارى أباه بعد ما فات المدى ... فتلاه بين الفوت والإدراك

أما **شعر الرثاء** في الأندلس، في معناه التقليدي، فلم يكن من الأغراض الرائجة، وظل يحذو حذو نماذج الشعر المشرقي حين يستهلّ برد الفواجع ووصف المصيبة التي حلت بموت الفقيد. وعادة تستهل القصيدة بالحِكَم وتختتم بالعظات والعبر. أما رثاء المدن والممالك فهو الغرض الأندلسي الذي نبعت سماته وأفكاره من طبيعة الاضطراب السياسي في الأندلس. وكان مجال إبداعٍ في الشعر الأندلسي. وقد ظلت قصيدة أبي البقاء الرَّنْدِي التي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

ورائية ابن عبدون:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

وسينية ابن الأبَّار:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن الطريق إلى منجاتها درسا

عدا ما قيل في مراثي بني عبّاد ووزيرهم المعتمد، ظل كل ذلك من عيون الشعر العربي عامة والأندلسي خاصة. تبع الشعر الأندلسي الشعر المشرقي في هذا اللون من التعبير، وإن كان شعراء الأندلس، لعناية الأندلس بالفلسفة، قد حققوا قدرًا ملحوظًا من العمق في المعنى والبراعة في التصوير حين يتناولون موضوعات في الحكمة. فقد كان من شعراء الأندلس من طوعوا الفلسفة للشعر والشعر للفلسفة، فصوروا الخواطر النفسية والتأملات الفكرية مما يُعد مجال إبداع في هذا اللون من الشعر. ونمثل لهذا الغرض بقول أمية بن عبد العزيز:

وما غربة الإنسان في غير داره ... ولكنها في قرب من لا يشاكله

أما **الزهد والتصوف والمدائح النبوية**؛ فلعل حياة الدعة والترف والمجون التي غرق فيها المجتمع الأندلسي، أدت إلى اتجاه معاكس، يفسر نزعة الزهد والتصوف التي راجت في الشعر الأندلسي. فالأندلسيون تفوقوا على المَشَارِقَة في هذا الغرض، غزارةً في الإنتاج وتوليدًا للمعاني ورسمًا للصور المؤثرة القوية. ويلفت النظر أن عددًا من شعراء الأندلس أدركتهم التوبة بعد طول حياة لاهية، فوجهوا طاقتهم الشعرية في آخر أيامهم إلى طلب مغفرة الله ومرضاته وإلى ذم حياة اللهو والمجون والدعوة إلى الزهد والتقشف. ومن أشهرهم في هذا المقام ابن عبدربه وابن حمديس والغزال. يقول ابن عبدربه:

إنّ الذين اشتروا دنيا بآخرة ... وشقوة بنعيم، ساءَ ما تجروا
يامن تلهىَّ وشيب الرأس يندبه ... ماذا الذي بعد وَخْطِ الشيب تنتظر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة ... لكان فيه عن اللذات مزدجر

وأما التصوف فقد اشتهر به من شعراء الأندلس أعلام على رأسهم شيخ المتصوفين ابن عربي وابن سبعين وابن العريف والشستري وغيرهم. وقد وجه الشعر الأندلسي طاقة كبيرة للتغني بمدائح الرسول، وكان أهل الأندلس قاطبة يحنون إلى الحجاز وإلى مهبط الوحي وإلى المدينة المنورة. وقد اتسع المديح النبوي منذ القرن السادس الهجري وأصبح من أغراض الشعر الأندلسي المقدَّمة، وكان من أسباب ذلك إحساس أهل الأندلس بضيعة الإسلام، عندما تكاثرت عليهم جيوش النصارى، فاتخذوا من الشعر أداة للاستغاثة بالرسول الكريم وكانوا يرسلون القصائد إلى القبر النّبوي الشريف واصفين محنهم وأذاهم. ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو زيد الفازازي وابن جابر الأندلسي وأبو الحسن الرُّعَيْني وغيرهم من شعراء الأندلس.

وكثر **شعر الطبيعة والخمر**، وكان لطبيعة الأندلس الأثر الحاسم في جعل هذا الغرض من أميز أغراض الشعر الأندلسي. وتمثل طبيعة الأندلس الملهم الأول لشعراء الأندلس، خاصة أن مجالس الخمر واللهو والغناء كانت تقام في أحضان هذه الطبيعة. وقد عبّر ابن خفاجة، أشهر شعراء الطبيعة في الأندلس، عن هذه الصلة، فقال:

يا أهل أندلس لله درُّكمُ ... ماءٌ وظلٌ وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلاّ في دياركمُ ... ولو تخيرت هذا كنت أختار

ويتَّسِم هذا اللون من الشعر بإغراقه في التشبيهات والاستعارات وتشخيص مظاهر الطبيعة وسمو الخيال. كما كان يقوم غرضًا مستقلاً بذاته ولا يمتزج بأغراض أخرى، وإن امتزج بها لم يتجاوز الغزل أو مقدمات قصائد المدح.

ويعد معظم شعراء الأندلس من شعراء الطبيعة. فكل منهم أدلى بدلوه في هذا المجال، إما متغنيًا بجمال طبيعة الأندلس، أو واصفًا لمجالس الأنس والطرب المنعقدة فيها، وإما واصفًا القصور والحدائق التي شُيدت بين أحضان الطبيعة. ولذلك كان كل شعراء الأندلس ممن وصفوا الطبيعة. والشاعر ابن خفاجة الأندلسي المقدَّم بين هؤلاء الشعراء، إذ وقف نفسه وشعره على التغني بالطبيعة لا يتجاوزها وجعل أغراض شعره الأخرى تدور حولها.

ثانيا: النثر:

تماثل حالة النثر في الأندلس حالته في المشرق إلى حد بعيد. فالتأثير الفكري والفني بين الأندلس والمشرق كان متبادلاً. وكانت رحلة العلماء والأدباء ضرورة علمية يُحرص عليها. ومن ثم اتفق المشرق والأندلس في طبيعة الموضوعات والأساليب فعرف الأندلس طريقة الجاحظ في الكتابة، وبديع الزمان الهمذاني والحريري في المقامات، وابن العميد والقاضي الفاضل في الترسل. ونحاول في إيجاز التَّعريف بأهم الفنون النثرية التي راجت في الأدب الأندلسي.

الرسائل الديوانية.

احتاجت الدولة الأندلسية إلى هذا اللون من الرسائل الذي عُني بالمضامين السياسية والإدارية والتشريعية والاقتصادية والاجتماعية وما إليها من مهام تتطلبها الدولة وهي تصدر من ديوان الحكم، يكتبها الحاكم بنفسه أو يكتبها عنه كاتبه، وتمثل المنشورات الرسمية التي ترسم سياسة الدولة ومن هنا كانت مادتها تشمل مختلف أمور الدولة ونظمها. وهي عندما تصدر عن الكتاب المحترفين تتخذ أسلوبًا لا يخلو من الصنعة والتأنق والمحسنات، أما عندما يكتبها الأمراء أنفسهم فتكون عادة مباشرة تخلو من الزخرفة والصنعة.

العهود:

وتُعد العهود من باب الرسائل الديوانية. وقد برع ابن برد الأكبر في هذا اللّون من الترسل، وبلغ عددٌ من كتاب الأندلس ذروة فنية بسبب هذا اللون من الرسائل. وكان التنافس بينهم حادًا. كما

كان الأمراء يحرصون على أن يكون في بلاطهم أهل البلاغة والفصاحة من الكُتَّاب. وعلى كلٍّ فقد كانت الرسائل الديوانية من أوسع أغراض النثر في الأندلس، وأدت ببعض الكتاب ممن عرفوا بذوي الوزارتين، إلى تسنم مرتبة الوزارة والحكم.

الرسائل الإخوانية.

هي ذلك اللون المتبادل بين الكتاب بعيدًا عن الطابع الرسمي، أو يعالج أغراضًا تحمل الطابع الذاتي من تهنئة وتعزية وشكر واعتذار وعتاب وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية بين الإخوان. وهي تعكس جانبًا من الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية في الأندلس. وقد حفل كتاب الذخيرة بطائفة منها وهي لا تختلف كثيرًا عن نمط رصيفتها في المشرق.

الرسالة الأدبية.

هي ذلك اللون من الترسل الذي يؤدي موضوعات كانت من قبلُ وقفًا على الشعر. وأسلوبها لا يخلو من سخرية أو وصف أو عاطفة، كما ينقل إلى النثر أهم أدوات الشعر من خيال وتصوير. هذه الرسائل تحتوي على نظرات في الحياة والأحياء وحكم عن النفس وموقف من المجتمع. وتُعد رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، بما فيها من خيط قصصي، من أهم الرسائل الأدبية في الأندلس. انظر: التوابع والزوابع. وكذلك رسالتا ابن زيدون الرسالة الجدية والرسالة الهزلية، ثم رسالة ابن برد الأصغر البديعة في تفضيل أُهُب الشاة. هذا اللون من الرسائل جاء متأثرًا برسالة الجاحظ التربيع والتدوير، وكذلك بكتابه البخلاء حيث يضفي على الموضوع اليسير روحًا من الجد والوقار.

المناظرات والمفاضلات.

هي تلك الرسائل التي تُعنى بطرح الأدلة والجدل والحوار داخل إطار من الفلسفة والمنطق والاستدراك، وغرض الكاتب إظهار براعته مستفيدًا من ثقافته، وقدرته على الصياغة والاستدلال. وتُعد رسالة ابن برد الأصغر رسالة السيف والقلم من أميز هذه النماذج في النثر الأندلسي. وموضوعها مناظرة بين دعامتي الدولة: المحارب والكاتب. كل منهما يرى أنه المُقدم في تدعيم أركان الدولة، وكل فريق يؤيّد وجهة نظره بما يلتمسه من الأدلة والبراهين.

رسائل الورود

ورسائل الورود التي جاءت على ألسنة الكتاب كلٌ يفضّل وردًا أو زهرًا بعينه، من هذا اللون من رسائل المناظرات. وقد كتب عدد من كتاب الأندلس في هذا النهج، ومن أهمهم أبو الوليد حبيب الحميري وابن برد الأصغر وأبو عمر الباجي وأبو مروان الجزيري. وكل من هؤلاء الكتاب اتخذ من ورد أو زهر معين رمزًا لأميره أو لولي نعمته، وجعل من تفرّد هذا الورد بين الورود نظيرًا لتفرد أميره بين الأمراء. كما تشف هذه الرسائل عن الصراع والحسد في بلاط الأمراء، ولها من المعاني الرمزية ما يحتمل مختلف التفسيرات. وهي في كل أحوالها تدل على قدرة النثر الأندلسي حين اتخذ كُتابه من الطبيعة ومظاهرها موضوعًا للجدل بدلاً من الجدل حول شؤون القصيدة كما كان الأمر في المشرق.

ولعل استغراق الطبيعة لأهل الأندلس وحبّهم لمظاهرها جعل من الموضوع منافسة أدبية، وظّف الكتّاب في شأنها براعتهم بأساليب الجدل والمناظرة. وقد تأتي رسائل المناظرات على نحو سياسي أو شعوبي مثل رسالة ابن غرسيه التي يفضل فيها العجم على العرب. وقد أثارت ردودًا كثيرة وأضحت من أشهر الرسائل الأدبية في الأندلس، فرد عليها ابن البلنسي وابن من الله القروي وغيرهما. ومن رسائل المناظرات والمفاخرات تلك التي كانت بين المدن الأندلسية. ومن أهم هذا النمط من الرسائل ماكتبه لسان الدين بن الخطيب، وكذلك رسالة ابن حزم الأندلسي في فضل علماء الأندلس، ورسالة أبي بحر بن إدريس بين المدن الأندلسية.

المقامات.

تنقسم المقامات الأندلسية إلى نمطين: النمط التقليدي وهو حكايات قصيرة يسودها شبه حوار، وقوامها بطل وراو وعقدة، ويتبع نموذج بديع الزمان الهمذاني في المشرق. انظر: المقامات. والنمط الثاني غير تقليدي، وهو أقرب للرسالة، وقد يأتي في قالب قصصي أو غير قصصي، وقد يكون فيه بطل وراوٍ وعقدة أو لايكون.

عرفت الأندلس المقامة من خلال حركة المد الثقافي بين المشرق والأندلس. فانتقلت المقامة إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وعارضها عدد من أدباء الأندلس مقلدين بديع الزمان الهمذاني. ثم انتشرت مقامات الحريري في الأندلس وعُني بها علماء الأندلس وأهل الأدب عناية واسعة، وقام أبو العباس الشريشي الأندلسي بشرح مقامات الحريري في أهم شروحها الثلاثة المسماة الكبرى والوسطى والصغرى.

وأهم كاتب أندلسي حذا حذو المقامة المشرقية التقليدية أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي بمقاماته المسماة المقامات اللزومية، نسبة إلى كاتبها. وقد عالجت هذه المقامات مختلف الأغراض والموضوعات سياسيّها واجتماعيّها وخلقيّها وأدبيّها. وكان لها راوٍ وبطل مثل مقامات الهمذاني والحريري. وتُعد مقامة ابن شرف القيرواني التي عالج فيها الحياة الأدبية في المغرب والأندلس على نهج المقامة التقليدية، من أهم هذا اللون من المقامات، وقد بنيت على سياق هرمي من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع، وذكر فيها مايربو على الأربعين شاعرًا، وكان يقارن بين شعراء المغرب والمشرق. كما نجد مقامة عبد الرحمن بن فتوح وهي نص قصير أورده صاحب الذخيرة مبتسرًا، ويُعد موضوعها من موضوعات النقد الأدبي.

المقامات التقليدية:

وهي التي تفتقد البطل والراوي، فكان من أهم موضوعاتها المدح الخالص، مثل مقامة أبي عامر بن أرقم في الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم المرابطين، وكذلك مقامة الوزير أبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم، والأرجح أنها في مدح المعتضد ابن عباد. هذه المقامات أقرب ما تكون إلى قصائد مدح منثورة تحل الشعر تارة وتعقد النثر أخرى، ولا تحفل بعقدة أو حيلة أو بطل أو راوٍ، ولكنها تهتم بإظهار براعة كاتبها في المدح وتلتزم دائمًا اللغة المسجوعة المزخرفة، وتظهر حظ كاتبها من البلاغة والبيان. وهي تمدح القواد والرؤساء ورجال العلم والأدب، كما مدحت الأمراء والحكام. ومن هذا الضرب مقامة أبي بكر يحيى بن محمد الأركشي المسماة قسطاس البيان في مراتب الأعيان، وهي مدح للعلماء وأصحاب المعارف.

وكما اختصت المقامة غير التقليدية في الأندلس بالمدح اختصت كذلك بالهجاء؛ هجاءٌ سافر مرة وفاحش مقذع مرة أخرى. وتُعد المقامة القرطبية المنسوبة إلى الفتح بن خاقان في هجاء الأديب البطليوسي من أشهر مقامات الهجاء في الأدب الأندلسي؛ إذ أثارت حولها جدلاً وتبرأ من كتابتها كل من نسبت إليه. فقد نسبت إلى عبد الله بن أبي الخصال وتبرأ منها، كما نسبت إلى ابن خاقان فتبرأ منها. وكتب الوزير أبو جعفر بن علي رسالة سمّاها رسالة الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية، وهي رسالة تسلك مسلك مقامات الهجاء. ولعل الغريب في أمر هذه المقامة القرطبية أن البطليوسي نفسه لم يرد عليها. وأعجب من ذلك أن أبا الحسن المرسي كتب مقامة هجاء قائمة بذاتها في البطليوسي، ويبدو أن البطليوسي اختص بعداء أهل زمانه. أما المقامة التي

يُجهل كاتبها وهي في ثلب بن الرياحي فتعد أقذع مقامات الهجاء في الأندلس، ففيها إسفاف وفحش في القول وسلاطة لسان.

ومن أغراض المقامات غير التقليدية غرض المشاهدات ووصف الطبيعة في الأندلس. وكان لسان الدين بن الخطيب أشهر كتاب المشاهدات في مقامته خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، فهي تصف الطبيعة في أحوالها المتقلبة، كما تقف على المدن الأندلسية وتصفها وصفًا يتجاوزها إلى عادات الناس وأخلاقهم ومأكلهم وملبسهم. وأهمية مقامات المشاهدات أنها تعطي صورة صادقة للحياة الاجتماعية في الأندلس، فتصف الأعياد والاحتفالات ومشاركة المرأة للرجل، كما تتحدث عن قسوة الحياة في بعض الأقاليم ورخائها في أخرى، ثم فن العمارة وحضارة الأندلس. وقد تتناول ترجمات لمشاهير الفقهاء والعلماء والقضاة ورجال الأدب. وقد كتب ابن الخطيب مقامة أخرى على هذا النسق هي معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. ومثلها مقامة طيّ المراحل التي كتبها أبو عبد الله محمد بن مسلم.

أما مقامات المفاخرات فكانت تتخذ من المدن أكثر موضوعاتها، وقد تتخذ موضوعات من غير المدن، وإن كانت مفاخرات المدن هي أشهرها، مثل مشاهدات ابن الخطيب في مفاخرات ملقا وسلا، ومقامة الفقيه عمر الزجال مقامة في أمر الوباء، وهي مفاخرة بين مدينتي الحمراء وملقا، ثم مقامة أبي الحسن علي بن عبد الله النباهي المسماة المقامة النخلية، وهي مفاخرة هذه المرة بين نخلة وكرمة، يتخذ فيها النخلة رمزًا للعرب والإسلام والكرمة لليهود وغير المسلمين، مبينًا هَوَانَ أمر العرب والإسلام أيام دولة الأندلس بغرناطة حين صارت الأمور بأيدٍ غير عربية.

حفلت فترة ملوك الطوائف بألوان من هذه الصراعات بين رجال السيف والقلم كما عبر عنها ابن برد، أو حين اتخذت الأزهار والورود لمعانٍ رمزية. ولكن الأمر بلغ ذروته حين اكتسى ثوبًا شعوبيًا صريحًا في رسالة ابن غرسيه التي ذم فيها العرب وفخر بقومه العجم، فرد عليه أبو جعفر البلنسي وابن من الله القروي وعبد الله بن أبي الخصال، وإن كانت هذه الردود أدخل في دنيا الرسائل الأدبية منها في دنيا المقامات.

خصائص الأدب في الأندلس:

كان نثر الأندلسيين بريئا من تأثير الأمم الأجنبية فإن القوم اختلطوا بأمم حظها من الحضارة ضئيل كالبربر والإسبان بخلاف عرب المشرق الذين أثرت فيهم ثقافة اليونان والفرس والسريان والهنود وغيرهم فظهر ذلك التأثير في كتابتهم وأفكارهم، وجعل عندهم من الحرية الفكرية مالم يتمتع به أهل الأندلس فلقد كانت الفلسفة تدخل بلادهم عن طريق أهل المشرق فلا تلاقي إلا الاضطهاد والاعراض على خلاف أهل المشرق الذين تمتعوا بحرية نسبية يحسدون عليها في تلك الأيام، ولئن ظهر بعض المشتغلين بالعلوم الفلسفية من الأندلسيين فإن تأثيرهم في الوسط الثقافي، كان محدودا، فاهتم الأدباء بالثقافة العربية والإسلامية بالقرآن والحديث والشعر والأيام والحروب والتاريخ والأمثال فكان أثر الثقافة بارزا في نثرهم لاسيما في نثر ابن خلدون.

وكان الأدباء يميلون إلى الازدواج ويقللون من السجع ثم كثر السجع في نثرهم حتى شمل المؤلفات العلمية كالتاريخ وغيره.

وقد أثرت عنايتهم بالطبيعة وحيهم إياها على النثر والشعر فصار الخيال من مميزات رسائلهم وخطبهم وإنا لنجده خيالا يعتمد على الحس ويميل إلى الطبيعة ويخلو من التعقيد.

ولقد ظل أدبهم محافظا على جدته وصحته فترة من الزمن أكثر طولا من الفترة التي حافظت فيها الآداب الشرقية على صحتها وأصالتها بيد أن الناحية الفكرية كانت في الآداب الشرقية أعمق وأوسع.

وشعر الأندلسيين يمتاز بتجديد في الأوزان والقوافي وهذا ما قد ظهر في الموشحات، وقد أثرت فيه الطبيعة الأندلسية الجميلة فاعتمد على الوصف وغالى الشعراء في ذكر الرياض والأزهار والخمائل والجداول والوديان وغلبت عليه الرقة وسهولة المعاني وابتعد عن تأثير البادية فعزف عن الغريب كما ابتعد عن تأثير الفلسفة والفكر العميق فجفت فيه الحكمة ومال إلى اللين وظهرت فيه موضوعات جديدة كرثاء المدن التي كان يحتلها الأعداء والدعوة إلى الدفاع عن البلاد والدين، ولم يظهر فيه الفخر الذي نعرفه في أدب المشارقة.

ولقد كان الأدب الشرقي على العموم أقوى على البقاء التأثير وكان أهل الأندلس يعرفون ذلك ويغترفون من الآداب الشرقية ويقومون برحلاتهم إلى العراق ومصر والشام ويأخذون عن علماء تلك

الديار وأدبائهم، ولقد ضاع قسم كبير من الأدب الأندلسي نتيجة الاحتلال الاسباني والحروب والفتن فأصاب الآداب العربية من الخسائر ما تتألم منه النفوس.

وكان عرب الأندلس يكثرون من قول الشعر وأن بعض المدن كانت تشتهر بكثرة من يقول الشعر فيها حتى من العوام والفقهاء، وكان الملوك ينظمون الشعر فيُرى عنهم إلى جاب أعمالهم وأخبارهم.

المحاضرة الرابعة عشر

المحاضرة: الرابعة عشر (14)

الأدب العثماني، أغراضه وفنونه وتطوره

تاريخ الدولة العثمانية:

نشَأَت الدَّولةُ العُثمانيَّةُ في شَوَّالٍ سَنةَ (698هـ) الموافِقِ لشَهرِ يوليو سَنةَ (1299م) على يَدِ عُثمانَ الأوَّلِ بنِ أُرْطُغْرُل، كإمارةٍ تُرْكُمانيَّةٍ تابِعةٍ لسَلاجِقةِ الرُّومِ، التي استقَلَّت فيما بَعدُ، بعدَ سُقوطِ سَلْطَنةِ السَّلاجِقةِ، وقد تمدَّدَت تلك الإمارةُ العُثمانيَّةُ في دُوَلِ أوروبَّا الشَّرقيَّةِ حتَّى استطاعت أن تفتَحَ أغلَبَ بِلادِ البُلقانِ، إلى أن أسقَطَت الإمبراطوريَّةَ البِيزَنطيَّةَ وفتَحَت القُسْطَنطينيَّةَ سَنةَ (857هـ).

ومن هذا الوقتِ تغَيَّرَت وِجهةُ نَظَرِ العُثمانيِّينَ من فتحِ البِلادِ الأوروبيَّةِ إلى تحويلِ الفُتوحاتِ إلى بلادِ الإسلامِ؛ لتَدخُلَ في اشتباكاتٍ مع المماليكِ والصَّفَويِّينَ وغيرِهم من الممالِكِ والدُّوَيلاتِ، تنتهي بضَمِّ مِصرَ والشَّامِ والحِجازِ وغيرِها من الأقطارِ العَرَبيَّةِ، وسُقوطِ الخِلافةِ العبَّاسيَّةِ المستَقِرَّةِ في القاهِرةِ، بتنازُلِ الخليفةِ العبَّاسيِّ محمَّدٍ المتوكِّلِ على اللهِ للسُّلطانِ العُثمانيِّ سِليم الأوَّلِ سِنةَ 923هـ.

وكعادةِ اللهِ تعالى في خَلْقِه أنَّ (لكُلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ)؛ فقد تحوَّلت قوَّةُ الدَّولةِ العُثمانيَّةِ إلى ضَعفٍ! ساعَد على ذلك تلك الثَّوراتُ الدَّاخليَّةُ التي أشعلَتْها الحرَكاتُ القوميَّةُ في الدَّاخِلِ، بتحريضٍ من الأوروبِّيِّينَ، فتكالبت عليها إمبراطوريَّاتُ أوروبَّا، حتَّى أُعلِنَ استِسلامُها وانتهاؤُها بصفةٍ سياسيَّةٍ، وأُزيلت بوَصفِها دولةً، وقامت الجُمهوريَّةُ التُّركيَّةُ مقامَها في أوروبَّا في سنةِ (1923م)، مع اقتِسامِ فَرَنسا وإنجِلْترا للتَّركةِ العُثمانيَّةِ في العِراقِ والشَّامِ، بَعْدَ أن سبقَتْهما المغرِبُ ومِصرُ إلى أيديهما!

ومن البَديهيِّ إذَنْ أن تكونَ دِراسةُ الأدَبِ العَرَبيِّ في العَصرِ العُثمانيِّ مقصورةً على المدَّةِ التي تبدأُ من قيامِ الخِلافةِ العُثمانيَّةِ في بلادِ العَرَبِ والمُسلِمين، لا قَبْلَ ذلك من وُجودِهم في أوروبَّا؛ إذ العُثمانيُّون أتراكٌ ليسوا عَرَبًا.

ولا؛ الشعر:

1/ الغزل:

ضربَ الغَزَلُ بسهمٍ وافرٍ في الشِّعرِ العَرَبيِّ في الدَّولةِ العُثمانيَّةِ، وتعَدَّدَت الأشعارُ الواردةُ فيه على اختلافِ أشكالِه وصُوَرِه، على النَّحوِ الآتي: المُقَدِّماتُ الغَزَليَّةُ، الغَزَلُ العفيفُ، الغَزَلُ الحِسِّيُّ، والتَّغزُّلُ بالغِلْمانِ. ابتدأ كثيرٌ من الشُّعَراءِ قصائِدَهم في مختَلِفِ الأغراضِ الشِّعريَّةِ بالمقَدِّمةِ الغَزَليَّةِ، على عادةِ القُدَماءِ في ذلك، فهذا ابنُ مَعتوقٍ يستَفتِحُ قصيدتَه في المدحِ بمُقَدِّمةٍ طَلَليَّةٍ يقولُ فيها:

هذا الحِمى فانزِلْ على جَرْعائِه ... واحذَرْ ظُبَا لفَتاتِ عَينِ ظِبائِهِ
وانشُدْ به قلبًا أضاعَتْه النَّوى ... من أَضْلُعي فعَساه في وَعْسَائِهِ
وسَلِ الأراكَ الغَضَّ عن رُوحٍ شَكَتْ ... حرَّ الجَوى فلَجَتْ إلى أفيائِهِ

مال كثيرٌ من الشُّعَراءِ إلى الغَزَلِ العُذْريِّ، الذي لا يُفضي إلى وَصفِ محاسِنِ امرأةٍ ومفاتِنِها، بل يُعَبِّرُ عن شَوقِه وحبِّه، مع التَّعفُّفِ والتَّرَفُّعِ عن منزلةِ أصحابِ الغَزَلِ الفاحِشِ الذي يُهَيِّجُ الشَّهَواتِ ويَطعَنُ في الأعراضِ. فمن ذلك قَولُ ابنِ النَّحَّاسِ الحَلَبيّ:

ألذُّ الهوى ما طال فيه التَّجنُّبُ ... وأحلاه ما فيه الأحبَّةُ تَعتِبُ
وما بُعدُ دارٍ من حبيبٍ مُذَمَّمًا ... إذا لم يجِدْ فيه مُناهُ المؤَنَّبُ
قضى الحظُّ إلَّا أن أكون مُبَعَّدًا ... وألقى الذي لاقى المحبَّ المعَذَّبُ

توارَث الشُّعَراءُ ذلك الغزل الحسي عن أسلافِهم؛ فالشُّعَراءُ ما بَرِحوا من عهدِ الجاهليَّةِ يتغنَّون بمفاتِنِ المرأةِ ومحاسِنِها، بل ربَّما بالغ بعضُهم فوَصَف مغامَراتِه الجِنسيَّةَ وفُجورَه، على نحوِ ما صنع امرؤُ القَيسِ وغيرُه. ومن هؤلاء الشُّعَراءِ: أحمدُ الكيواني الدِّمَشقيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ المَوصِليُّ، وغيرُهما.

اجتَهَد الشُعَراءُ العُثمانيّونَ في التَّغزُّلِ بالغِلمانِ، وإضافةِ المعاني الجديدةِ في هذا الغَرَضِ، وذلك مجاراةً منهم للشُّعَراءِ السَّابقين، وإبرازًا لمَقدِرتِهم الشِّعريَّةِ، وإنْ لم يكُنْ منهم إعجابٌ بالغِلمانِ، أو تعلُّقُ غَرَضِهم بشيءٍ من ذلك. ومن هؤلاء: جمالُ الدِّينِ الحُسَينيُّ، وإبراهيمُ البترونيُّ.

الخمريات:

اعتاد الشُّعَراءُ ذِكرَ مجالِسِ الأحبَّةِ، ووَصفَ الخُمورِ ونحوِ ذلك، وهو أمرٌ لم يترُكْه الشُّعَراءُ العُثمانيُّون، بل تناولوه في شِعْرِهم كذلك، سواءٌ أكان الشَّاعِرُ يَشرَبُ الخَمرَ ويجلِسُ في مجالِسِها أم لا. فمن ذلك قولُ مَنْجَك باشا:

وافى الرَّبيعُ فما عليك بِعَارِ ... خَلعُ العِذارِ ولا ارْتشافُ عُقارِ
صَهباءُ ليس يجوزُ عندي مَزْجُها ... إلَّا بريقَةِ شادِنٍ مِعْطارِ
تَدَعُ الدُّجى صُبْحًا إذا هيَ أُبْرِزَتْ ... فكأَنَّما اعْتُصِرتْ من الأنْوارِ

<u>المدح:</u>

لم تتغَيَّرْ بواعثُ المدْحِ في العَصرِ العُثمانيِّ عمَّا كانت عليه في العَصرِ المملوكيِّ؛ فالفتوحاتُ التي بلغت أقصى الأرضِ لم تَزَلْ باعثةً للشُّعَراءِ لمدحِ الأمَراءِ والسَّلاطينِ الذين يحمِلون رايةَ الإسلامِ. فهذا ابن قافٍ الرُّوميُّ يمدَحُ السُّلطانَ مرادَ بنَ سليم الأوَّلِ حينَ فَتَح مدينةَ تَبْريزَ، يقولُ:

فيا مَلِيكًا له كلُّ المُلوكِ غَدَتْ ... تدِينُ طَوعًا وتأتي وَهْيَ تعتذِرُ
سِرْ وامْلِكِ الأرضَ والدُّنيا فأنت إذًا ... إسْكَنْدرُ العَصرِ قد وافى به الخَضِرُ

<u>الفخر والحماسة:</u>

تعدَّدَت بواعِثُ شِعرِ الفخرِ والحماسةِ عِندَ الشُّعَراءِ العُثمانيِّينَ؛ فاستمرارُ الفُتوحاتِ وتوالي انتصاراتِ الجَيشِ المُسلِمِ في أرجاءِ الأرضِ، ووجودُ بعضِ الخارِجينَ على الدَّولةِ الذين شقُّوا عصا الطَّاعةِ وأفسدوا في الأرضِ ورَوَّعوا قوافِلَ التِّجارةِ والحَجِّ؛ كُلُّ ذلك كان مُغريًا الشُّعَراءَ للتَّغنِّي بمآثِرِ المُسلِمين وأمجادِهم، وتحفيزِ الأمراءِ والسَّلاطين للذَّبِّ عن بَيضةِ الإسلامِ من الدَّاخِلِ والخارِجِ. فمِن ذلك قولُ الشَّاعِرِ عليِّ بنِ نشوانَ الحِمْيَريِّ على لسانِ المنصورِ باللهِ بنِ محمَّدٍ صاحِبِ اليَمَنِ، في الفَخرِ ببُطولاتِه ومآثِرِه:

وكتيبةٍ موصولةٍ بكتيبةٍ ... تختالُ في حَلَقِ الحديدِ المُدْبَجِ
وتَطَيَّبي بعَجاجِ نقعٍ ثائرٍ... ودمٍ لأثوابِ الكَمِيِّ مُضَرَّجِ

<u>الرثاء:</u>

اقتضَت سُنَّةُ اللهِ تعالى في خلقِه أنَّ (كلَّ مَن عليها فانٍ)؛ العظيمُ والحقيرُ، والوزيرُ والخفيرُ، والغنيُّ والفقيرُ، خاصَّةً مع توالي المعارِكِ والفُتوحاتِ التي عاشَتْها الدَّولةُ الإسلاميَّةُ في فترةِ الخِلافةِ العُثمانيَّةِ وما يسقُطُ في تلك المعارِكِ من الشُّهَداءِ من القادةِ والجنودِ، ولكلٍّ مُحِبٌّ يبكي لفقيدِه، لا

سيَّما إن كان الفقيدُ مؤثِّرًا يرثيه الشُّعَراءُ. فمن ذلك قولُ المفتي أبي السُّعودِ العماديِّ في رثاءِ السُّلطانِ القانونيِّ:

أصَوْتُ صَاعِقَةٍ أمْ نَفْخَةُ الصُّورِ ... فالأرضُ قَدْ قُلِبَتْ مِنْ نَقْرِ نَاقُورِ
أصَبَ منها الوَرى دَهيَاءُ دَاهِيةٍ ... وذَاقَ منها البَرايا صَعقَةَ الصُّورِ
فَمِنْ كَئِيبٍ ومَلْهُوفٍ ومِنْ دَنِفٍ ... عَانٍ بسِلْسِلةِ الأحْزانِ مَأسُورِ

وظهَر كذلك رثاءُ النَّفسِ حينَ الإحساسِ بدُنُوِّ الموتِ، كقَولِ درويشِ بنِ طالو:

مَرْحَبًا بالحِمَامِ ساعةَ يَطْرَا ... ولو ابتزَّ مِن مدى العُمْرِ شَطْرَا
حبَّذا الارتحالُ من دارِ سوءٍ ... نحن فيها في قبضةِ القَهرِ أَسْرى
وإذا ما ارتحَلْتُ يا صاحِ عنها ... لا سقى اللهُ بعديَ الأرضَ قَطْرَا

الشعر الديني:

أكثَرَ الشُّعَراءُ من الشِّعرِ الدِّينيِّ الذي يدعو النَّاسَ إلى الزُّهدِ والوَرَعِ، والطَّمَعِ فيما يُدخِلُ الإنسانَ الجنةَ ويُبعِدُه عن النَّارِ، وتغَنَّوا بالمدائحِ النَّبَويَّةِ التي لم تخْلُ من التَّوسُّلِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبأصحابِه وآلِ بيتِه ٧، خاصَّةً مع قُوَّةِ شَوكةِ الصُّوفيِّين في الدَّولةِ العُثمانيَّةِ التي كانت تُعَيِّنُ شيوخَ طُرُقِهم بنَفسِها عن طريقِ السَّلاطينِ؛ ممَّا كسَبَهم شُهرةً واسعةً وانتشارًا في أطرافِ الدَّولةِ ومَركَزِها. فمن ذلك قولُ ابنِ النَّقيبِ:

أَجَلُّ حديثٍ لا يُمَلُّ دوامُه ... ويُثمرُ طيبًا للأنامِ اغتنامُهُ
حديثُ رسولِ اللهِ مَن هو خاتمُ ... النَّبيِّين مفتاحُ الهُدى وإمامُهُ
محمدٌ المختارُ أشرفُ مُرسَلٍ ... عليه صلاةُ اللهِ ثمَّ سَلامُهُ

الهجاء:

إذا كان الشَّاعِرُ في عَصرِ المماليكِ يَعمِدُ إلى الهِجاءِ من بابِ الإضحاكِ والمُزاحِ، فإنَّ الهِجاءَ قد أخَذ منحنًى آخَرَ في زمَنِ العُثمانيِّينَ؛ إذ كان الهِجاءُ من بابِ الجِدِّ الذي لا هَزْلَ فيه. فمِن ذلك قولُ عِمادِ الدِّينِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ محمَّدٍ الدِّمَشْقيِّ في هجاءِ أحمدَ بنِ زَينِ الدِّينِ المَنْطِقيِّ؛ لأنَّه أخَذ مكانَه في المدرَسةِ السليميَّةِ، وهو لا يراه أهلًا لذلك:

لَك أشتكي مولايَ أفظَعَ وَصْمةٍ ... كادَت لشدَّةِ قَهْرِها تُصْميني
يا ضَيْعةَ الأَعمارِ في طَلَبِ العُلى ... بالعِلمِ والنَّسَبِ الذي بالشِّينِ

أَمِنَ الْمُروءةِ وهْيَ أسمى رُتْبةٍ ... أنِّي أُعادَلُ بابْنِ زَينِ الدِّينِ

الوصف:

غلَبَت الطَّبيعةُ على نُفوسِ كثيرٍ من الشُّعَراءِ، فانصرف إليها عازفًا عن الأجواءِ السِّياسيَّةِ والاجتِماعيَّةِ، متلهِّيًا بها عن أشعارِ الحَماسةِ والفَخرِ، والمدْحِ والهِجاءِ، وغيرِه ممَّا تدعو إليه الأحوالُ، فيستأنِسُ بالرِّياضِ والحُقولِ والخُضرةِ، ويتلهَّبُ إلهامُه بإضرامِ البَرقِ ودَويِّ الرَّعدِ. فمن ذلك قَولُ الشِّهابِ الخَفاجيِّ:

قَدَحَتْ رعودُ البَرقِ زَندَا ... أضرَمْنَ أشجانًا ووَجْدَا
في فَحمةِ الظَّلماءِ إذ ... مَدَّت على الخَضراءِ بُرْدا
حتَّى تثاءَب نُورُه ... وتمطَّت الأغصانُ قدَّا

التجديد في الشعر العثماني:

استمرَّ تيَّارُ التَّجديدِ في شَكلِ القصيدةِ وأغراضِها على نحوِ ما كان في عَصرِ المماليكِ؛ فمنه ما ظهَر في استغلالِ الصُّوَرِ السَّابقةِ للقصيدةِ كالمُوَشَّحاتِ وغيرِها من الشِّعرِ الشَّعبيِّ، ومنه ما كان تطويرًا للقصيدةِ العَموديَّةِ المألوفةِ. برع العُثمانيُّون في استِعمالِ أشكالِ الأدَبِ الشَّعبيِّ المُختَلِفةِ؛ فمِن المُوَشَّحاتِ قَولُ ابنِ النَّقيبِ:

يا ليالي السَّفحِ من عَهدِ الصِّبا ... يا سَقى مَغناك صَوبُ الدِّيَمِ
كم تسَرَّقْتُ بها بَيْنَ الرُّبى ... خُلَسًا مرَّتْ كطَيفِ الحُلُمِ

ومن الخماسيَّاتِ قَولُ عبدِ اللهِ الشَّبراويُّ:

إنِّي أغالِطُ فيك صَحْبي ... حتَّى يَرَوني غيرَ صَبِّ
مولايَ ما هذا التَّأبِّي ... أمَّا هواكَ فمِلءُ قلبي
فلِما جَفَوتَ بغيرِ ذَنبِ

ومن الرُّباعيِّ المُذَيَّلِ قَولُ ابنِ مَعتوقٍ في المدْحِ:

ما اشتُقَّ بياضُ مِسْكِها الكافورِ ... مِسكَ الشَّعَرِ
إلَّا كَسَر الضُّحى بتَرْكِ النُّورِ ... زَنْجَ السَّحَرِ

ومن الدُّوبيت –وهو بيتانِ منظومانِ على قافيةٍ واحِدةٍ، ولا يُشترطُ في المِصراعِ الثَّالثِ مُوافقةُ القافية قَولُ مَنْجَك باشا:

الهَجرُ بنا موكَلٌ مخصوصُ ... والصَّبرُ على احتمالِه منصوصُ
ما زلتُ أُجيلُ في هَواكم فِكري ... حتَّى فُقِد الخيالُ والتَّشخيصُ

التطوير في شكل القصيدة القديمة:

نمَّى شُعَراءُ العُثمانيِّين ما ابتدعه الشُّعَراءُ قَبْلَهم من إدخالِ أصنافِ البديعِ ونحوِه على القصائِدِ؛ اليازِجي أبياتًا لا تستحيلُ بالانعكاسِ، فلو قُرِئَت من الشِّمالِ إلى اليمينِ لم تختَلِفْ؛ قال:

قَمَرٌ يُفْرِطُ عَمدًا مُشرِقُ ... رَشَّ ماءً دَمْعُ طَرْفٍ يَرْمُقُ
قُرْطُه يَفْدي جَلاه أيمنٌ ... من مياه الجِيدِ فيه طُرُقُ
قَبَسٌ يدعو سَناه إن جَفَا ... فجَناه أُنسُ وَعدٍ يَسْبِقُ

ثانيا؛ النثر:

على الرَّغمِ من اعتِمادِ العُثمانيِّين للُّغةِ التُّركيَّةِ لُغةً رسميَّةً للدَّولةِ العُثمانيَّةِ، وتتريكِهم للدَّواوينِ ونحوِها، وصَرْفِ ديوانِ الإنشاءِ إلى المتحَدِّثين بتلك اللُّغاتِ؛ فإنَّ ذلك لا يعني انقراضَ المكاتَباتِ الدِّيوانيَّةِ الرَّسميَّةِ، بل استمرَّ بعضُ الكُتَّابِ الذين يُراسِلون السَّلاطينَ والوُزَراءَ؛ ولهذا تنقَسِمُ المكاتَباتُ في ذلك العَصرِ إلى نوعَينِ:

أولًا: المُكاتَباتُ الرَّسميَّةُ الدِّيوانيَّةُ

وهي التي يَكتُبُ فيها الأديبُ للأميرِ أو الوزيرِ أو السُّلطانِ فيما يطرَأُ من الأمورِ والمُستَجَدَّاتِ؛ كالمَدحِ والتَّهنئةِ والتَّعزيةِ، والشَّكوى وغيرِها من بواعِثِ المُراسَلةِ. وقد اتَّسم ذلك النَّوعُ من الكتابةِ بالإطراءِ والتَّفخيمِ. فمِن ذلك رسالةُ مرعي بنِ يُوسُفَ الحنبليِّ إلى أحَدِ السَّلاطينِ العُثمانيِّين: (أحَقُّ مَن مَلَك سَريرَ الخلافةِ بالاستِحقاق، وأَوْلى مَن وَلِيَ لواءَ الولايةِ في الآفاق، وهو الذي وجَّه عِنانَ العنايةِ لحِمايةِ الإسلامِ بشَهادةِ الإجماع، وتلك شهادةٌ لا يَتطَرَّقُ إليها النِّزاع، وجدَّد بُنيانَ الهُدى بَعدَ ما درَسَت آثارُه، وطُمِسَت معالمُه، ومهَّد بساطَ العَدْلِ بعدَ أن لم يُوجَدْ إلَّا مظلومٌ وظالِمُه؛ الخُنكارُ الأعظَمُ والخاقانُ الأفخَمُ، ذو المفاخِرِ التي شَهِد بفَضلِها الخاصُّ والعامّ، والمآثِرِ التي ترتَفِعُ على الثُّريَّا وتُكاثِرُ الغَمام، والأخلاقِ التي رام النَّسيمُ أن يحاكيَ لُطْفَها فأصبَحَ عليلًا، والمعالي التي تَحَيَّل المُلوكُ أن يتشَبَّهوا بها فلم يجِدوا إلى ذلك سبيلًا، الجامِعُ لسيرةٍ أنامت الرَّعايا في مهادِ الأمان،

وسريرةٍ تكفَّلَت أياديها بكَفِّ عوادي الزَّمان، وعَدلٍ سوَّى بَيْنَ شريفِ الخليقةِ ومَشروفِها، وإحسانٍ سَيَّرَ الهِباتِ تجري لذوي الحاجاتِ إلى حُروفِها. المفتَخِرُ على سلاطينِ الدُّنيا بفخامةِ مملكةٍ تردُّ الأبصارَ حَسْرى، وسريرِ سَلطنةٍ إذا استوى عليه أحيا ذِكْرَ السَّلَفِ الصَّالحِ وأمات ذِكرَ كِسرى، إذا سار بَيْنَ المواكب فما هو إلَّا القَمَرُ حُفَّ بالكواكِب، بصوارِمِ سُيوفٍ تعطِفُ حُروفُها أعناقَ المُعتَدِين، وأَهِلَّةٍ تُرسِلُ نُجومَ سِهامِها على شياطينِ البُغاةِ والمتمَرِّدين، ورايات تخفُقُ قُلوبُ الأعداءِ لخَفَقانِها، وتخفِضُ رُتَبُهم لرَفعِ شأنِها، لا يرتابُ مُؤَمِّلُه في أنَّه البحرُ والعساكِرُ أمواجُه، ومراحِمُه الدُّرُّ التي يظهَرُ بها طُلَّابُ العُرفِ وأفواجُ)

مِن رسالةِ محمَّدٍ البَكريِّ إلى أحَدِ السَّلاطينِ كذلك: (أهدي إلى السُّدَّةِ العالية، والعَتَبةِ المتعالية، ومقامِ السَّلطنةِ الرَّفيع، سلامًا يتعَطَّر فِردَوسُ الجِنانِ بشَميمِه، ويتضَوَّعُ رِضوانُ والحُورُ والوِلدانُ بنسيمِه، ممزوجًا بأنفاسِ الملائكةِ المتقَرِّبين، ساريًا بنَفَحاتِ الأقطارِ المواصِلين، تمُدُّه الرَّحَموتيَّةُ اللَّاهوتيَّةُ بأسرارِها، وتصاحِبُه الحقيقةُ المُحَمَّديَّةُ الأحمَديَّةُ النَّبَويَّةُ بأنوارِها)

ثانيًا: المُكاتباتُ الإخوانيَّةُ

اتَّسَمت تلك الكتابةُ بالمَيلِ إلى التَّقليدِ في استخدامِ المُحَسِّناتِ والتَّصويراتِ، وخَلَت من الإحساسِ الصَّادِقِ والشُّعورِ الباعِثِ على الأدَبِ، فضلًا عن أنَّها لم تكُنْ تدورُ حَولَ معانٍ جديدةٍ، وإنَّما كان الغَرَضُ الأوَّلُ منها إثباتَ مقدرةِ الشَّاعِرِ البيانيَّةِ فحَسْبُ؛ ولهذا جاءت متكَلِّفةً في الألفاظِ والمحَسِّناتِ، مبتَذَلةً في المعاني، بل ربَّما لجأ بعضُهم إلى استخدامِ قُدرتِه البيانيَّةِ على صَوغِ الألغازِ والأحاجيِّ .

فمن تلك الكتاباتِ رِسالةُ الشَّيخِ علي أبو النَّصرِ إلى أحَدِ أصحابِه بمِصرَ، جاء فيها: (إنَّ أبهى ما تُسَرُّ به نُفوسُ الأحبَّة، وأبهَجَ ما يُستضاءُ بنُورِه في دياجي المحبَّة، دونَ ما رَسَمه يَراعُ المَشُوق، وأبدعَه ممَّا يحسُنُ ويَروق، تشوُّقًا إلى اقتِطافِ ثَمَراتِ المسامَرة، وتشوُّفًا إلى أبياتٍ بمحاسِنِ البديعِ عامِرة، ولَمَّا تشرَّف المُحِبُّ بورودِ المحلِّقِ الأسنى، الجامِعِ بَيْنَ رِقَّةِ اللَّفظِ ودِقَّةِ المعنى، كان يرقُصُ طَرَبًا، بَعدَ أن قضى ممَّا رآه عجَبًا، وتاقَت نفسُه إلى التَّشَبُّهِ بالأوائِل، وأين فَهاهةُ باقِل من فصاحةِ سَحْبانِ وائِل.

وكتَب عبدُ اللهِ الإدكاويُّ إلى الشَّاعِرِ نورِ الدِّينِ العُسَيليِّ: (غَبَّ سلامٌ يشوقُ عَزفًا، ويروقُ ظَرْفًا، وتحيَّاتٌ تميدُ عَطفًا وتزيدُ لُطفًا، وثناءٌ يمُدُّ كَفًّا ويَعُدُّ عُرفًا، وأشواقٌ تطولُ وَصفًا وتقولُ ألفًا.

فالمعروضُ بَيْنَ تلك الأيادي الهامِعُ جودُ جُودِها وَكَفا، العزيزةُ المنالِ عن الأندادِ والأكْفا، مِن المحِبِّ الذي ازداد شوقُه ضِعفًا، وقَلَّ صَبرُه ضَعفًا. هو أنَّا طلَبْنا لبارِقِ جوابِكم لحظًا، وأدَرْنا طَرْفًا، واستسْمَحْنا إشراقَ شَمسِ فرائِدِكم الذي عزَّ أن يخفى، واستمطَرْنا صَوبَ عِرْفانِكمُ الأصفى، وألفاظِكم البديعةِ الرَّائقةِ المرصوفةِ رَصفًا، وآثارِ يَراعتِكم المصفوفةِ نُقوشُها صفًّا صفًّا..

وإذا كانت هذه الرَّسائِلُ قد كُتِبَتْ باللُّغةِ الفُصحى، فقد صيغت رسائِلُ أُخرى باللَّهجةِ العامِّيَّةِ، منها ما كتَبَه بعضُ قُضاةِ الأريافِ؛ يقولُ: (السَّلامُ من الفِقي أبو عَلي، اللِّي اسمُه محمد علي، حضرة صاحِبنا اللِّي يطالِع في القُرآن زي ما يَطلَع الزَّرْع في الغِيطان، ويتكَلم بالفَهامة، وياما له علينا شهامة، اللِّي يبيع الكُتُب المنظومة من الكلام زي قِصَّة الجارية والتَّودُّد والورد في الأكمام، حاوي الكتابة في السُّطور، ومن يَعرِف كتاب الفَخِّ والعُصفور، وأنا في شَوقٍ واشتياقة لا يحمِلُه جَملٌ ولا ناقة، ولا حمارٌ ولا حمارين، ولا بغل ولا بغلين، ولا زرافة).

<u>الرسائل الأدبية (المقالات)</u>

إذا كانت المُكاتَباتُ الرَّسميَّةُ والأهليَّةُ قد اتَّسَمت بالتَّمسُّكِ بالسَّجعِ وألوانِ البديعِ، فإنَّ نوعًا آخَرَ من الكتابةِ لم يَلبَثْ أن تخلَّص من تلك القُيودِ، وهو كتابةُ الرَّسائلِ الأدبيَّةِ، وهي تلك الرَّسائِلُ التي لا يكونُ غَرَضُها التَّراسُلَ بَيْنَ الرَّئيسِ والمرؤوسِ، ولا بَيْنَ الإخوانِ والأصدقاءِ والأحبابِ، وإنَّما تلك التي يُعبِّرُ فيها الأديبُ عن رأيِه إزاءَ الشِّعرِ أو الأدَبِ أو قضايا أمَّتِه الاجتماعيَّةِ والأدبيَّةِ والسِّياسيَّةِ والإنسانيَّةِ، بغَضِّ النَّظَرِ عن أهمِّيَّةِ الموضوعِ أو حقارتِه، فهي كالتَّنفيسِ عن صَدرِ الأديبِ المكلومِ، وإثباتِ قُدرتِه الأدبيَّةِ على صَوغِ العباراتِ وحَبْكِ الفَقراتِ.

فمن أمثلةِ تلك الكتاباتِ: رسالةٌ نظَمَها نَجمُ الدِّينِ الغَزِّيُّ، سمَّاها (آداب المؤاكَلة)، وتحدَّث فيها عن آدابِ الأكلِ والاجتماعِ على موائِدِ الطَّعامِ، وإجابةِ الدَّاعي إلى الولائِمِ، وذَكَر أبرَزَ العُيوبِ التي تعتري الجماعةَ عِندَ اجتماعِهم على الطَّعامِ، مع الاستشهادِ بأبرَزِ القِصَصِ المُضحِكةِ التي ذُكِرَت في ذلك العَيبِ. ابتدأ الغَزِّيُّ رسالتَه بقولِه: (الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفى. هذه جملةٌ من العُيوبِ التي مَن عَلِمَها كان خبيرًا بآدابِ المؤاكَلةِ، وعِدَّتُها أحدٌ وثمانون عيبًا، حَسَبما نقَلْناه مُفَرَّقًا، واللهُ الموفِّقُ).

وذَكَر منها: (المتثاقِلُ: والمتثاقِلُ هو الذي يُدعى فيُجيبُ، ويوثَقُ منه بالوفاءِ، ثمَّ يتأخَّرُ عن الدَّاعي الملهوفِ حتَّى يُجيعَه ويجيعَ إخوانِه ويُنَكِّدَ عليهم. فجزاءُ هذا بعدَ الاستظهارِ عليه بالحُجَجِ وإعادةِ الرَّسولِ إليه: أن يستأثِرَ الإخوانُ بالمؤاكَلةِ دونَه، معتَمِدين بذلك الاستحقاقِ به ليؤدِّبوه إن كانت فيه مُسكةٌ، أو يُنبِّهوه إن كانت له فِطنةٌ. وقد جاء في الخبَرِ في إجابةِ الدّاعي وتَركِ التَّأخُّرِ عنه قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من دُعِيَ إلى طعامٍ فليُجِبْ، إن كان مُفطِرًا فلْيَأكُلْ، وإن كان صائمًا فليُصَلِّ)). فإذا كان الصَّائِمُ قد أُمِر بالإجابةِ، فكيف بالمُفطِرِ، ومن أجاب ثمَّ تأخَّر؟! وقد ناب ذلك جَحظةَ البَرمَكيَّ مِن فتًى، فكَتَب إليه: تأخَّرتَ حتَّى كدَّرتَ الرَّسولَ وحتَّى سَئِمْت من الانتِظار، وأوحَشْتَ إخوانَك المستَعِدِّين، وأضرَمْتَ بالجوعِ أحشاءَهم بنارٍ تزيدُ على كلِّ نار. ويقالُ: ثلاثة تُضني: سراجٌ لا يُضيء، ورسولٌ بطيء، ومائدةٌ يُنتظَرُ بها مَن يجيء).

ومنها أيضًا ما كتبه الشَّعرانيُّ في نقدِ حالِ أهلِ الدِّين الذين لم يحفَظوا ماءَ وُجوهِهم عن ذُلِّ السُّؤالِ مع سَعةِ حالِهم، وقد كان السَّلَفُ الصَّالحُ يُعرِضون عن متاعِ الدُّنيا وزُخرُفِها وقد جاء إليهم طواعيةً من غيرِ سُؤالٍ، يقولُ: (فأين حالُ هؤلاء المشايخِ من مشايخِ هذا الزَّمانِ الذين يسافِرون من مِصرَ أو الحِجازِ أو الشَّامِ إلى الرُّومِ أو العِراقِ؛ ليسألوا أن يُرَتِّبَ لهم السُّلطانُ جواليَ، أو مُسوحًا، أو مرتَّبًا، مع أنَّ أحَدَهم يجِدُ في بَلَدِه ما يكفيه، وكان الأَولى بهم لو عُرِض عليهم ذلك أن يَرُدُّوه ولا يزاحِموا جُندَ السُّلطانِ في مالِ المصالِحِ كما دَرَج عليه سَلَفُهم الصَّالحُ.

<u>المقامات:</u>

شُغِف الأُدَباءُ بالمقاماتِ جِدًّا، وتوسَّعوا في استخدامِ المُحَسِّناتِ البديعيَّةِ اللَّفظيَّةِ والمعنَويَّةِ فيها، وأكثَروا من إنشادِ الأشعارِ والأرجازِ على نحوٍ يبعَثُ على السُّرورِ والإعجابِ، ويقضي بالإنصاتِ والتَّقديرِ، ويُفضي إلى الحُكمِ بموهبةِ الأديبِ وقُدرتِه على تسخيرِ موادِّ البيانِ وتطويعِها لبَنانِه. ومن أبرَزِ أصحابِ المقاماتِ: ناصيف اليازِجي؛ إذ جمَع في كتابِه (مَجْمَع البَحرَين) ستينَ مقامةً، أبدَع فيها وأطرَب، منها مقامتُه البَدَويَّةُ التي هي أولى مقاماتِ الكِتابِ، يقولُ فيها: (حكى سُهَيلُ بنُ عَبَّادٍ قال: مَلِلتُ الحَضَر، ومِلْتُ إلى السَّفَر، فامتطَيتُ ناقةً تسابِقُ الرِّياح، وجعَلتُ أخترقُ الهِضابِ والبِسطاح، حتَّى خيَّم الغَسَق، وتصرَّم الشَّفَق، فدَفَعتُ إلى خيمةٍ مضروبة، ونارٍ مَشبوبة. فقُلتُ:

من يا ترى القومَ النُّزولَ هَهنا ... هل بهم الخَوفُ أم الأمَنُ لنا؟

قد كان عن هذا الطَّريقِ لي غِنى

وإذا رجُلٌ من وراءِ الحِجابِ قد استضحك وأجاب:

إنِّي ميمونُ بني الخزامِ ... وهذه ليلى ابنتي أمامي

نعَمْ، وهذا رجَبٌ غُلامي ... مَن رام أن يدخُلَ في ذِمامي

يأمَنُ من بوائِقِ الأيَّامِ

قال: فسَكَن منِّي ما جاشَ من الجأش، ودخَلتُ فإذا رجُلٌ أشمطُ النَّاصية، يكتَنِفُه الغُلامُ والجارية، فحَيَّيتُ تحيَّةَ مُلتاح، وجثَمْتُ جثمةَ مُرتاح، وبات الشَّيخُ يُطرِفُنا بحديثٍ يُشفي الأُوام، ويشفي من السَّقام، إلى أن رقَّ جِلبابُ الظَّلماء، وانشَقَّ حِجابُ السَّماء، فنهَضْنا نهيمُ في تلك الهيماء، حتَّى إذا أشرَفْنا على فريق، يناوِحُ الطَّريق، عَرَض لنا لُصوصٌ قد أطلقوا الأَعِنَّة، وأشرَعوا الأسِنَّة. فأخذ الشَّيخُ القَلِق، وقال أعوذُ برَبِّ الفَلَق، من شَرِّ ما خَلَق. ولمَّا التَقَت العَينُ بالعَين، على أدنى مِن قابِ قوسَين. قال: يا قومِ هل أدلُّكم على تجارة، تقومُ بحَقِّ الغارة؟ قالوا: وما عسى أن يكونَ ذاك؟ حيَّاك اللهُ وبيَّاك! فقال: يا غلامُ، اهبِطْ بهم إلى مراعي الرِّيف، وأنا أقِفُ هنا أراعي كاللَّغيف.

قال سُـهَيلٌ: فلمَّا توارى بهم أوفَض الشَّـيخُ على ناقَتِه القَلوص، حتَّى أتى الحَيَّ فنادى: اللُّصـوص، وطلَبَ المراعي فانهالت في أثَرِه الرِّجال، وإذا اللُّصـوصُ قد سـاقوا قِطعةً من الجِمال، فأطبَقوا عليهم من كُلِّ جانب، وأخذوهم أَسْرى إلى المضـارِب، حتَّى إذا أثخَنوهم شَـدُّوا الوَثاق، وقد كادت أرواحُهم تَبلُغُ التَّراق. ثمَّ أدخَلونا إلى بيتٍ طويلِ الدَّعائِم، في صَـدْرِه شـيخٌ كأنَّه قيسُ بنُ عاصِم. فقال: أحسَنْتَ أيُّها النَّذير، فسنوفي لك الكَيل، ونُعطيك ما لهؤلاء اللُّصوصِ من الأسـلابِ والخَيل. فابتَسَـم الشَّـيخُ من فَورِه، وقال: (جَدَحَ جُوَينٌ من سَـويقِ غيرِه). قال: قد رأيتَ ما لا يُرى، فعندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القومُ السُّرى. ولمَّا كان الغَدُ أهاب بنا داعي الأمير، ونَفَحَنا بصُرَّةٍ من الدَّنانير، فضمَمْناها إلى أسـلابِ اللُّصوصِ وخَرَجْنا نجِدُّ المسير. ولَمَّا استوى الشَّيخُ على القَتَب، أخذَتْه هِزَّةُ الطَّرَب. فأنشأَ يقولُ:

أنا الخُزامي سليلُ العَرَبِ ... أذهَبُ بَيْنَ النَّاسِ كُلَّ مَذهَبِ

وأُلبِسُ الجِدَّ ثيابَ اللَّعِبِ ... وأستقي من كُلِّ بَرقٍ خُلَّبِ

وأتَّقي باللُّطفِ كُلَّ مِخلَبِ ... وألتقي الرُّمحَ بلَدْنِ القَصَبِ

قال: فلمَّا فرَغ من إنشادِه تزَمَّل ببِجادِه ، وقال: يا قومِ اتَّبِعوا من لا يسألُكم أجرًا، ولا تستطيعون بدونِه نَصرًا. ثمَّ انطلق بَيْنَ أيدينا كالدَّليل، وهو يمزجُ الوَخدَ بالذَّميل، إلى أن نُشِرَت رايةُ الأصيل، فنزَلْنا وارتبَطْنا الأنعام، وأضرَمْنا النَّارَ للطَّعام. وقام الشَّيخُ حتَّى دنا من ناقتي فحَلَّ العِقال، وأخذ يتخَطَّى ويتمَطَّى ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال، فنفَرَت النَّاقةُ في مجاهِلِ تلك الأرض، وجَعَل يستوقِفُها زجرًا فتشتَدُّ في الرَّكْض، فبادرتُ أعدو إليها حتَّى استأنَسَتْ من النِّفار، ورجَعْتُ بها أتنوَّرُ تلك النَّار، وإذا الشَّيخُ قد أخذ كُلَّ ما هناك وسار. فصَفقْتُ صَفْقةَ الأوَّاه، وقلتُ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله. ثمَّ عمَدْتُ إلى عِقالِ ناقتي المُجفِلة، وإذا طِرْسٌ قد عُقِلَ به مكتوبًا فيه بعدَ البَسْمَلة:

قُلْ لسُهَيلٍ: لستَ بالمغبونِ ... لولاي ذُقتَ غُصَّةَ المَنونِ
فأنت والنَّاقةُ في يميني ... مِلْكٌ بحَقٍّ ليس بالمنونِ
لكِنْ عَفوتُ عنك كالمديونِ ... وهَبْتُه الدَّيْنَ لحُسْنِ الدِّينِ
فقَدِّمِ الشُّكرَ إلى ميمونِ!

قال: فعَجِبتُ من أخلاقِه، وأَسِفْتُ على فِراقِه. ووَدِدتُ على ما بي من الفاقة، لو مكَث واستتبَعَ النَّاقة).

وقد نَبَغ في كتابةِ المقاماتِ أيضًا شِهابُ الدِّينِ الخفاجيُّ، فمِن ذلك قولُه في مقامةِ الغُربةِ: (حدَّث الرَّبيعُ بنُ الرَّيان، عن شَقيقِ بنِ النُّعمانِ، قال: لمَّا هزَّتْني أريحيَّةُ الشَّباب، إلى اقتِعادِ سَنامِ الأرضِ على غارِبِ الاغتِراب، وقد أجدَبَت الأرضُ من كُلِّ ماجِد، يجتني جنى المجْدِ لثِمارِ المحامِد، وتعطَّلَت من كريمٍ تلتَفُّ عليه المحافِل، وتسيرُ في ظِلالِ أعلامِه الجَحافِل، وتبدَّلَت بأُنسِها وَحشًا، فلا ترى غيرَ جائعٍ يَتجَشَّا ... وقُلتُ:

بقَولِك طه سافِروا تغنَموا لقد ... بدا ليَ فألٌ في المطالِبِ رابحُ
فما خَطَّ في رَملٍ ولا طَرَقَ الحصى ... كأيدي جيادٍ في السَّرابِ سوابحُ

وجنَبْتُ الجِيادَ إلى المهاريِّ، ولَبِستُ حُلَّةَ دُجًى مُزَرَّرةً بالدَّراريِّ، مع صُقورٍ على مُتونِ أعوجيَّاتٍ ورِكاب، بإقدامِ أقدامٍ تَرفُّ بَيْنَ غَرزٍ ورِكاب، على سُفُنِ ذودٍ وزَوارِق، وسرُوجٍ سوابِحَ في بحارِ السَّرابِ غَوارِق، فلم يَزَلْ يرفَعُنا الآل، بَيْنَ رِفاقِ صَحبٍ وآل، على عَبَسٍ ما لها غيرُ النَّصَبِ عِقال، وظُهورِ سوابِحَ ما لها غيرُ الكَلالِ شِكال، حتَّى نزَلْنا على الخَوَرْنَقِ والسَّدير، وأنَخْنا مطايا

العَزمِ بَيْنَ رَوضةٍ وغَدير، فسَأَلْنا عن بيضةِ البَلَد، وطَودِها الذي له بسَفْحِها أرفَعُ سَنَد، فقالوا: هو النَّضرُ بنُ كِنانة، المُقَرطِسُ سِهامَ آرائِه من أعَزِّ كِنانة، شيخٌ لَبِس عمائِمَ دَهرِه الثَّلاث.

فهي على هامةِ هِمَّتِه ثلاث، مِن شَجَرةٍ مُورِقةِ النَّسَب، مُثمِرةٍ بيانِعِ ثمارِ الحَسَب، جاهُه عَريضٌ طويل، فائضٌ على العَدُوِّ والخَليل، وطِيبُ شمائِلِه في كُلِّ نادٍ انتَشَر، فغُمَّةُ رَوضاتٍ تَزدري الزَّهَر، هيَّجَها نَضحٌ من نَضحِ السَّحَر، فقُلتُ: بخٍ بخٍ، الجاهُ زكاةُ الشَّرَف، ومَن أحسَنَ إلى من أساء إليه فقد انتَصَف، ومن تردَّى بساطِعِ الأنوار، واحتبى بحباءِ الوَقار، ولم يَبْقَ له ليلٌ يَصيحُ بجانِبِه نهار؛ فالسَّعادةُ له شعارٌ ودِثار ، فقُلتُ: سأفيضُ له وعليَّ أجملُ رِدَا، وأذهَبُ إليه في رُفقتي غَدَا، فلمَّا عَطَس الصَّباح، وشَمَّتَتْه كُلُّ ذاتِ جَناح، ورفَعَت ذُكاءُ رأسَها من مَشرِقِ الأنوار، فأشرَقَت على عالَمِ الكونِ والفَساد لنشاهِدَ ما فيه من الأسرار، أتيتُ دارَه، فرأيتُ بُدورًا لها المنازِلُ دارة، دارٌ يسافِرُ بها النَّظَر، ويتسابَقُ في محاسِنِها السَّمعُ والبَصَر، داخِلَها بهوٌ وقُصور، وسُرادِقٌ لا يَعرِفُ كَمالُه القُصور، في صَدرِها هُمامٌ خَلْفَه وِسادة، أحدَقَ به وجوهُ أعيانٍ وسادَة، يتنَفَّسون بأنفاسِ النُّعامى، بَيْنَ أوراقِ رَيحانٍ وخُزامى:

لو أنصفوه لقاموا في مجالِسِه ... على الرُّؤوسِ قِيامَ الظِّلِّ في الماءِ

فقُلتُ له: حيَّاك اللهُ وبَيَّاك، ولا زالت مِشكاةُ أُنسِك مُشرِقةً بمُحَيَّاك، فردَّ التَّحيَّةَ بأحسَنَ منها وما رَدَّها، وأمدَّها بطَلاقةِ بِشْرٍ كانت سُلَّمًا لكرامةٍ أعدَّها، وحَولَه مِن حواشيه فِئام، وأغصانُ غِلمانٍ بناديه قِيام، كأنَّ على رُؤوسِهم الطَّيرَ، يتهَلَّلُ بِشْرُهم بكُلِّ خَيرٍ ومَير، في رَوضٍ نادٍ مُثْمِرٍ مُورِق، عليه مخايِلُ جَودِ جُودٍ مُغدِق، فتجاذَبْنا أهدابَ الحديث، وأتى بنوادِرَ حازت من كُلِّ تليدٍ وحديث، فلمَّا خُضنا لُجَّةَ الكلام ووَقَفَت الأقلامُ على ساحِلِ التَّمام، قال لي: هاتِ من قناتِك، وأنشِدْني ما قُلْتَه من أبياتِك، فأنشَدْتُه منها:

سَلَّ الزَّمانُ عليَّ عَضْبَهْ ... ليَروعَني وأحَدَّ غَرْبَهْ
وأسال مِن جَفني كِرا ... ه مُراغِمًا وأسال غَرْبَهْ
وأجالني في الأُفْقِ أط ... وي شَرْقَه وأجوبُ غَرْبَهْ
فبِكُلِّ جَوٍّ طلعةٌ ... في كُلِّ يومٍ لي وغَرْبَهْ
وكذا المُغَرِّبُ شَخْصُه ... مُتغَرِّبٌ ونَواهُ غَرْبَهْ

فلمَّا ارتوى الحديثَ من أعذَبِ الموارِدِ والمصادِر، ورجَع الحوارُ حارَّ النَّوادِر، بارِدَ البوادِر، قال: لا فَضَّ اللهُ فاك، ولا أقضَّ في مَهدِ الهَنا مَثواك، فقد تركتَ بُنَيَّاتِ الطَّريق، وجَلَوتَ خرائِدَ فِكرِك في مَعرِضٍ أنيق، ولم تَنثُرْ دُرَرَ المدامِع إلَّا من دُرٍّ مودَعٍ في صَدَفِ المسامِع، وما أقصرَ اللَّيلَ على الرَّاقِد، وأهونَ السَّقَمَ على العائِد، وقد أصبْتَ دارَ المُقامة، فأنت جارُ أبي دُؤاجٍ بدارِ الكرامة، فالزَمْه لُزومَ الطَّوقِ جِيدَ الحَمامة، فآمالُك لا تظمَأُ بهذا المقام، وكيف يظمَأُ مَن كان جارَ الغَمام:

ما بَيْنَ عَصرٍ سابقٍ متلفِّتٍ ... شَوقًا إليك ولاحقٍ يتطلَّعُ).

إلَّا أنَّ شهابَ الدِّينِ الخفاجيَّ كان كثيرَ الاحتذاءِ من غيرِه؛ فالأبياتُ الخمسةُ السَّابقةُ إنَّما هي للحَريريِّ بتمامِها وهيئتِها في مقاماتِه؛ ولهذا قال شوقي ضَيف عنه: (وامْضِ في ريحانةِ الأَلِبَّاءِ، فستَجِدُ صاحِبَها يتصَنَّعُ لمُصطَلَحاتِ النَّحوِ، كما يتصَنَّعُ لألوانِ البديع، وما نزالُ في أساليبَ غَثَّة، حتَّى نُوفي على آخِرِ الكتابِ، فإذا صاحِبُه يُؤَلِّفُ مقاماتٍ كُلُّها مأخوذةٌ من مقاماتِ الحريريِّ بألفاظِها، ومعانيها وأساليبِها).

<u>خصائص الأدب في العهد العثماني:</u>

كان الأدب في هذه العصور محدود الأفق، شاحب الإحساس، ضعيف الابتكار، فهوى من عليائه إلى مهاوي الصناعة اللفظية والزركشات البديعية والزخرف الباهت مما أدى إلى إفساد لغته وطمس معالمه، وخنق روحه وإضعاف مادته.

أما الأسباب التي أدت إلى ضعف الأدب فهي:

أ- غلبة طابع العنف، فقد تركت الحروب الصليبية أثرا عميقا في نفوس الناس ثم روعهم زحف التتر الرهيب، والمعارك التي كانت تندلع بين الحين والحين، فعم القلق، وانعدم الاستقرار، وساد الإحساس بالخنوع فأجدبت تربة المواهب وقصرت العبقريات.

ب- لم يكن المماليك على دراية باللغة العربية فهم لا يفهمون بلاغتها وأسرارها وكان حظهم من الذوق الأدبي ضئيل لا يحملهم على استحسان الروائع فرغبوا عن الشعر إلى الزجل وشاعت العامية، ولم ينل الأدباء من اهتمام أولي الأمر ما يشد من عزائمهم ويشحذ من مواهبهم.

ج- شحت المنح والجوائز فانصرف الأدباء إلى معاطاة الحرف لكسب القوت فلم يتوفر لهم الوقت الكافي لممارسة فن القول وتهذيبه، ولم يكن في حياة الأدباء ما يبعث على النشاط ويدفع على الترنم يجيد القول.

د- أغرق التتار في دجله عددا كبيرا من مؤلفات الحضارة ونتاج الفكر العربي الجبار فطمست معالم الثقافة الإسلامية وانقطعت سلسلة التطور العقلي وأصيبت الأذهان بالجمود وسيطر عليها الخمول وغدت الثقافة لماما لبعض ما أبقت عليه الأيام فضاق بذلك الافق الفكري وقلّ نصيبه من الخلق والابداع.

هـ- محاولة الأتراك احتلال اللغة التركية معان اللغة العربية فتقلصت الأخيرة وانزوت في زوايا المساجد وصحف المجلدات.

الخاتمة

الخاتمة

عزيزي الطالب: بين يديك الآن مقرر مادة تاريخ الأدب العربي القديم2، للسداسي الثاني كاملا، وهو معدٌّ على أساس أن تدرسه عن بعد ولوحدك ولن تجد في ذلك أيّ إشكال أو صعوبة بإذن. فأسلوبه سهل ميسر، وشواهده موثقة، ومصادره ومراجعه مثبتة، كي يتسنى لك التوسع والتحقق. وما عليك سوى اتباع الخطوات التالية كي تستفيد من هذه المحاضرات أقصى استفادة:

- ✓ تحميل الدروس جملة واحدة، والاحتفاظ بها مخزنة في هاتفك أو حاسوبك.
- ✓ طباعتها ورقيا إن تيسر لك ذلك، أو وجدت صعوبة في قراءتها إلكترونيا.
- ✓ قراءة صفحة التعريف بالمادة أولا.
- ✓ قراءة مقدمة المحاضرات.
- ✓ قراءة استكشافية أولية للمحاضرة.
- ✓ قراءة ثانية للمحاضرة مع التركيز، والتسطير تحت الكلمات والعبارات الأساسية.
- ✓ قراءة ثالثة مع التلخيص بأسلوبك، واستعمال الخرائط الذهنية.
- ✓ تسجيل كل ملاحظاتك وتساؤلاتك التي اعترضتك، لتسأل أستاذ المادة عنها.

وفي الختام لا يسعني إلا ان أتمنى لك التوفيق والنجاح، والله أسأل أن ينفع بهذه المحاضرات كل طالب علم، وأن يجعل لها القبول.

فهرس المصادر والمراجع

فهرس لأهم المصادر والمراجع

1) ديوان منجك باشا.
2) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي.
3) الأدب العربي القديم، عادل جابر صالح محمد وآخر.
4) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، محمد سيد كيلاني.
5) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ.
6) التحليل في الأدب العربي، سعد الدين مطر وآخر.
7) التحليل في الأدب العربي، سعد الدين مطر وآخر.
8) الجامع لتاريخ الادب العربي القديم، حنا الفاخوري.
9) الطبقات الكبير، محمد بن سعد.
10) العقد الفريد، أحمد بن محمد ابن عبد ربه.
11) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف.
12) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، نجم الدين الغزي.
13) الموسوعة العربية العالمية، أحمد الشويخات وآخرون.
14) بديع الإنشاء والصفات والمكاتبات والمراسلات
15) تاريخ الأدب العربي في المغرب، حنا الفاخوري.
16) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات.
17) تاريخ الادب العربي، عمر فروخ.
18) تطور الأدب العربي في مصر، أحمد عبد المقصود هيكل.
19) جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البَلَاذُري.
20) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي.
21) ديوان ابن النقيب.
22) ديوان ابن معتوق.
23) ديوان عبد الله الشبراوي.
24) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، للمرادي.
25) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك العصامي.

26) مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله شيخو.
27) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي.
28) موقع موسوعة الدر السنية، إشراف عام علوي بن عبد القادر السقاف، www.dorar.net.
29) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، للمحبي.
30) مقامات اليازجي.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

*	مفردات المادة	06
*	مقدمة	08
مح1	الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر الأموي	10
مح2	أغراض الشعر الأموي وتطوره	15
مح3	شعراء أمويون: (عمر بن أبي ربيعة، الأخطل)	18
مح4	فنون النثر في العصر الأموي وتطوره	25
مح5	ناثرون أمويون: (عبد الحميد الكاتب، والحجاج بن يوسف)	28
مح6	الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي	39
مح7	أغراض الشعر العباسي وتطوره	44
مح8	شعراء عباسيون (الشريف الرضي، الطغرائي)	50
مح9	فنون النثر العباسي وتطوره	60
مح10	ناثرون عباسيون (داوود بن علي، الخوارزمي)	66
مح11	الأدب المملوكي، أغراضه وفنونه وتطوره	74
مح12	الأدب في بلاد المغرب العربي تاريخه وخصائصه	87
مح13	الأدب الأندلسي، أغراضه وفنونه وتطوره	95
مح14	الأدب العثماني، أغراضه وفنونه وتطوره	109
*	خاتمة	124
*	فهرس المصادر والراجع	126
*	فهرس المحتويات	129